

د. محمد رضا الزقوف

روايات مصرية الحبيب

35

رجال من رجال

سافاري

Looloo

www.dvd4arab.com



مقدمة

اسمى (علاء عبد العظيم) .. طبيب مصرى شاب
بجاهد كما يقول الغلاف كى يبقى حياً ويبقى طبيباً ..

وحدة (سافارى) هى لبطل الحقيقى لهذه القصص ،
(سافارى) مصطلح غريب معناه (صيد الوحوش فى
أغلال إفريقيا) وهو محرف عن اللفظة (سفرية) العربية ..

لاحظت أن أكثر الأصدقاء يضيفون حرف ألف بين قراء
والياء لتحول الكلمة إلى (سافاراي) .. لا أعرف فى
الحقيقة سبب هذا الخطأ ، لكنه خطأ شائع شبيه بتلك الألف
للشيطانية التى يكتبها الجميع بعد (واو) ليست (واو
جماعة) على غرار (أرجوا الهدوء) . ولو كنت ترغب
فى معرفة النطق الغربى لللفظة (سافارى) فلتتخيل أنها
(صفرى) بفتح الصاد والغاء ..

وحدة (سافارى) التى نتكلم عنها هنا لا تصطاد
الوحوش ولكنها تصطاد المرض فى القارة السوداء ،
وسط اضطرابات سياسية لا تنتهى وأهال متشككين
وبيلة لا ترحم ..

الوحدة دولية لكن بظلم الفقير المعترف بالعجز
والتقصير شاب مصرى على جداً ، فقط وجد كثيراً من
عوامل الطرد في وطنه ، فأتلقى يبحث عن فرصة في
القارة السوداء .. أتلقى يبحث عن ذاته ..

هناك وجد التقدير .. وجد المغامرة .. وجد الحب ..
الطبيبة الكندية الرقيقة (برنادت جونز) التي صارت
زوجته .. ثم هناك الفيروسات القاتلة والقبائل المعادية
والمرتقة الذين لا يمزحون ، والطعام المخابيل وسارقو
الأعضاء ..

هناك كما قلنا من العسير أن تجمع بين شيئين : أن
تظل حياً وتظل طبيباً .. لكنك تحاول .. في كل يوم
تحاول ..

هذه المحاولات هي ما أجمعه لكم وأقصه لكم في شكل
قصص .. وقصصى هي خليط عجيب من الطب والميتافيزيقا
والرعب والعواطف والسياسة ! لا أعرف إن كان هناك
مجنون آخر قد جرب أن يصب هذا الخليط في كنوس ،
ويقدمها لكم ، لكنى لم ألق هذا المجنون بعد إلا في مرأتى ..
تعالوا نبداً وسنفهم كل شيء ..

(حديث بالفعل)

كفوا على قدر عال من التوتر وهم يقفون في المطر ..
الطائرة تلوح في الأفق ثم تتحدر متجهة نحو الممر
ليبدأ عذوها المحموم ..

برغم من الرئيس الفرنسي (ميتران Mitterand)
المتقدمة ، وخبرته بالعمل السياسي ، فإنه لم يعتد أن
يقابل شخصاً يحمل له كل هذا الاحترام . لهذا فترك
المحيطون به أنه عصبى بعض الشيء ..

ينفتح باب الطائرة ويظهر ذلك العجوز الأشيب
الضحوك .. العجوز الذي اعتاد (ميتران) أن يراه في
المصافات التي تطلب بإطلاق سراحه .. المناضل الذي
قضى أكثر حياته وراء القضبان يحمل بدلاً من اسمه
رقم (46664) ، لكنه اليوم - عام ١٩٩٤ - يخرج للعالم
مباشراً بجنوب أفريقيا جديد ..

إنه (نلسون مانديلا Mandela) .. الرجل الذي
تتلخص فيه كلمة جنوب أفريقيا .. ربما تتلخص فيه
كلمة (أفريقيا) ذاتها ..

ما إن صافح (ميتران) حتى شعر الرئيس الفرنسي بذلك الدفء المغناطيسى الذى تحدثوا عنه .. إنه لم يعد يهاب الرجل بل هو يحبه .. يحبه إلى درجة أنه سيفعل أى شئ يطلبه ..

وقد مشى (مقديلا) بعكازه وقميصه البسيط (ماديا) زاهى الألوان وسط حرس الشرف .. قدماء متخشبتان بفعل السن ، لكنه يرغبهما على الطاعة .. ووقف فى احترام بصفى لنشيد (المارشليز) .. لكنه لم يكن من الطراز المولع بهذه الطقوس .. كان منولا بهوى أن تكون الأمور طبيعية أكثر من هذا ..

عندما انتهت المراسم أوصلوه إلى قصر (الإليزيه) ؛ ليستريح ..

وفى المساء التقى الرئيسان على مائدة العشاء ...

بدأ (مقديلا) بحكى قصصا مسلية عن جنوب أفريقيا ، وبرغم أن الترجمة الفرنسية كانت تُفسد الكثير إلا أن (ميتران) راح يضحك .. الحق أن روح الدعابة كانت قوية لدى الرئيس الأفريقى العجوز ..

عندما انتهى العشاء سأل (ميتران) ضيفه عن إقامته وما إذا كانت مريحة ..

- « هل هناك شيء معين خارج البروتوكول يمكن أن أقوم به لك ؟ »

فكر (ماتديلا) قليلاً كأنما هو متردد ، ثم قال :

- « أريد (سارة) ! »

نظر له (ميتران) في عدم فهم :

- « (سارة) من ؟ »

- « (سارة بارتمان) .. »

ثم بلهجة تجمع بين الإقناع والرجاء أردف :

- « أتمنى لو عدت بها إلى وطني ! »

الزحام

سيارته معطلة ..

ومنذ متى لم تكن سيارته كذلك ؟ الحقيقة أن (أشرف) صديقي بدأ يدرك الحقيقة المروعة : لقد صار للتخلص من هذه السيارة لـ (١٢٤) المرعبة أمراً واجباً .. لم يخطر له هذا من قبل حتى في أسوأ كوابيسه .. كما قلت سابقاً تعد السيارة في مصر كلنا لبيداً ، ومهما حدث لها فهناك يوماً الأسطى (رمضان) الذي يعرف كيف يعيدها لحالتها .. لكن يبدو أن الأسطوات (رمضان) قد شاخوا أو ماتوا .. سيكون عليه التخلي عن رفيقة عمره هذه التي تحملته أيام الدراسة بالكلية وما بعد التخرج ..

زوجته (مها) قالت له إن هذه ليست سيارة لكنها (عشة) دجاج .. وقد جعله هذا يقارن بين السيارة وزوجته .. زوجته التي لم يعرفها بعد بشكل كاف ، ولم تقدم له بالتأكيد عشر ما قيمته هذه السيارة الباسلة ..

نسيت أن أخبركم .. لقد تزوج (أشرف) ، وزوجته تنتظر طفلها الأول في أغسطس القادم .. إنه يزداد صلغاً وبدانة ومرحاً ، لكن مشاكل الحياة بدأت ترسم علاماتها على جبينه وحول عينيه ..

الآن للسيارة عند الأسطى (سيد) منذ ثلاثة أيام ،
ومن الواضح أنها ستظل هناك فترة أطول .. هكذا وجد
نفسه مضطراً إلى ركوب سيارات الأجرة .. هو تصرف
لا يختلف كثيراً فى نظره عن ارتياد الحلات .. عمل
غير أخلاقى لا يمارسه المرء إلا مضطراً ، ومن الخير
ألا يراه أحد يقطعها ..

فى سيارة الأجرة التى راحت تشق طريقها عبر شوارع
المدينة المنهكة ، راح ينظر لساعته قلقاً بصدد اللحاق
بذلك الموعد فى (المهندسين) ..

(أشرف) يستعد للسفر إلى دولة عربية للعمل ..
أعنى بالطبع دولة غير مصر .. لقد تزوج ، وبالتالى
وجد أنه لم يعد يملك مليماً .. حاول أن يتناسى نبوءة
(مالتوس) المرعبة التى تقول إن الرجل حينما يتزوج
يهبط مستواه الاجتماعى طبقة ، وعندما ينجب يهبط
طبقة أخرى حتى يجد نفسه مضطراً لمخالطة طبقة
العمال والحرفيين ! وكان أبوه يقول له فى نبوءة
مشابهة : البس قبل أن تتزوج ، وكل قبل أن تنجب !

لكنه الآن ذاهب إلى هذا المستشفى الخاص فى
(المهندسين) لإجراء الفحوص اللازمة قبل السفر ..

ثمة احتمال لا بأس به ألا يكون هنا عندما يصل طفله
إلى العالم .. لكن العقود لا تنتظر ..

شارع جامعة الدول العربية .. ميدان مصطفى محمود ..

يطلق سائق التاكسي سبة .. لماذا ؟

إنه ذلك لتجمع من الوجوه السود الغضبية التي قررت
الاعتصام هناك احتجاجاً على إهمال مفوضية اللاجئين
لمطالبها .. لا يذكر السبب بالضبط لكنه شبيه بهذا ..

زحام .. خيام .. أطفال تصرخ .. ثياب معلقة ..
كتب وثياب تباع .. لب .. قول سوداني .. بحر من
الفقر والبؤس والغضب ...

- « هؤلاء جاعوا ليجعلوا الحياة معقدة أكثر مما هي .. »

يقولها السائق وهو يبصق من النافذة .. كان أسمر
للون مفتول العضلات غارقاً في العرق والتعب ..

- « ينشرون الأوبئة ويمارسون علاقاتهم القذرة هنا ،

والسبب .. لا أحد يعرف .. فقط الكثير من الزحام واحتلال

كامل للميدان .. لا أعرف لماذا تصبر الحكومة عليهم ؟

هه ؟ هل تعرف يا أستاذ ؟ »

كان (أشرف) يرمى الميدان شارد الذهن .. فقط
تدبّه للسؤال فقال :

- « لا أعرف .. »

لكن الاشتزاز كان قد بدأ يزحف على معنته هو
الآخر .. المشهد كئيب وقد أنشبت مغالبه في روحه
كله إخطبوط عملاق مخيف ..

يواصل السائق الكلام :

- « نحن بلد فقير .. فلماذا نمنح آخر ما لدينا من
لقيمات لهؤلاء ؟ لقد كان هذا خطأ (عبد الناصر) الذي فتح
باب مصر لهم .. تصور يا أستاذ أن أرملة (لومومبا)
ما زالت تتقاضى معاشنا من الحكومة المصرية ؟ هل
تذكر (لومومبا) ؟ »

لم يكن (أشرف) يعرف (لومومبا Lumumba) لكن
الاسم بدا مألوفاً ..

مال على السائق يسأله :

- « معذرة .. لكن من هو (لومومبا) ؟ »

بصق السائق من جديد من النافذة وقال :

.. « لا أنكر من هو .. لكن امرأته تتقاضى معاشاً ..
هذا خطأ (عبد الناصر) صلبتني .. »

وداس الفرملة ليتفادى رجلاً أفريقيًا ضئيل الحجم
يعبر للشارع غير مهال بالمسارات المصرة ..

.. « هل ترى ؟ يمكن للأمن أن يخلصنا من هؤلاء
في ثوان .. لكنهم يحجمون .. »

على الرصيف المقابل كان شاب أسود فارح الطول
يشير للمسارات في لهفة ، فمال السائق على اليمين
ليسمع ما يقوله بنسان شبه أجنبي .. ثم أوقف السيارة
على حين انطلق الفتى يركض ليلحق بها ..

اتفتح الباب وجلس الفتى في المقعد الخلفي يلهث ..

أصنع للرأس عملاق . يلتفت (أشرف) ليتأمل ..

الجلد الناعم للبرق كأنه من معدن أسود صقيل ..

للمنخران الصلاخان يعبان الهواء في جشع .. لون بياض

العينين أصفر .. قميص واسع مشجر الألوان .. للمرة

الأولى يدنو (أشرف) من أفريقي هذه المسافة وقد بدا

له غريباً .. أقرب إلى وحش يرى يحاول السيطرة على

أفعاله بصعوبة ..

.. « من أين أنت ؟ »

سأله السائق بصوت عال وهو يرمقه في المرأة ، فلم يقل الفتى شيئا .. فقط زدد توترا وراح يرمى الشوارع بعينين واسفتين لا تثبتان في محجرهما لحظة ..

قال السائق لـ (أشرف) :

- « هل ترى ؟ لا يفقه شيئا .. إنه مجرد فرد اقتزعه من الأشجار وألقوا به وسط (المهندسين) .. كأن هذا ينقصنا .. »

لحق أن (أشرف) وجد هذا الكلام معقولا ..

الفتى بحث في نفسه شاردًا ، فيقول للسائق :

- « أوف .. يا للقرع ! »

كان للمستشفى الذي يقصده (أشرف) قد اقترب ، فطلب من السائق أن يتوقف هنا ونقده ماله .. فقط وهو يغلق الباب لمح الفتى ينظر له بعينين متسعيتين ثابتتين من النافذة الخلفية ..

هذا الفتى يفهم العربية جيدًا .. لا شك في هذا .. قلها لنفسه وهو يقف على الرصيف بينما للسيارة تبتعد .. معنى هذا أنه فهم كل ما قاله السائق ..

لكن لا وقت لهذه الخواطر .. إن لديه مشكل جادة الآن ..

عندما جاء المساء كان (أشرف) منهكاً بحق .. لقد كان يومه طويلاً للغاية ..

كانت زوجته قد غابت في نعاس عميق وهي جالسة في الصلاة أمام التلفزيون .. يدها على بطنها وأنفاسها ثقيلة .. الحق أنه ما من حالة فسيولوجية أقرب إلى المرض من الحمل .. معاناة لا يمكن وصفها .. وهن على وهن لا يمكن لعقل رجل أن يتصوره ، لهذا يمكنه فهم مكتبة الأم المتميزة .. قرر أن يوقفها لتدخل للفراش ، لكنه صمم على أن يجلس إلى الكمبيوتر أولاً .. يجب أن ينهي هذا العمل سريعاً قبل أن يقهره النعاس بدوره ..

إله بحاجة إلى أن يرسل رسالة إلكترونية لصديق عمره (علاء عبد العظيم) .. هذا للوغد المشاكس الملتحي ..

بإصبع مرتجفة .. ويكثر من العصر يتناسب مع حداثة عهده بهذا الجهاز اللعين ، بدأ يكتب خطابه بإنجليزية كسريحة .. مستخدماً طريقة الفراتكو أراب المزعجة الشهيرة على غرار besara7a و salamo 3alaikom ..

« عزيزي علاء ... »

« كيف الحال ... ؟ »

عزيزى أشرف :

سررت حقاً لتلقى الرسالة .. برغم هذه اللغة الغريبة
التي تكتب بها ، والتي تجعطني اضطراب لقراءة الرسالة
سبع مراته .. إما أن يكتب المرء بالعربية أو الإنجليزية
لكن لا أقدر على فهم هذه اللغة العجيبة والتعابير
على غرار nel3ab ma3a el 2sad .. لكنى سررت أكثر
لما علمت أنك موثك على السفر .. إن هذا المرور
خليط من بهجة خالصة لأنك سوف تتخلص من ورطتك
المالية المزمنة ، ولذة ملابية لأنك ستجرب الغربة مثلى
وتترك زوجتك .. لكنى بما أعرفه عن طبيعتك لا أتوقع
أن الغربة ستثير فى نفسك ما تثيره فى نفسى من ألم ..
كنا نقول يوماً إبنى حساس مرهف وبقك عديم
الإحساس .. يبدو أننا كنا بعيدى النظر .. لاحظ أن
غربتى مزوجة وفريدة ذات بعين .. غربة عن وطنى
وغربة عن البلد الذى صار وطناً ثانياً ..

الحق إن هذه الغربة تثير خواطر غريبة فى النفس ،
وقد تنفك لاتخاذ أكثر القرارات جنونا .. أنت هس
نفسياً لهذا يمكن أن تنزلق لى شيء ..

لكن دعنا من هذا الموضوع الذى يشير الكثير من
 الشجن فى نفسى .. قل لى ما هى أخبار أسرتى ؟
 ما الذى يخلونه عنى ؟ ما أخبار أسرتك ؟ لقد كبرنا كثيرا
 يا (أشرف) .. طلبا المدرسة الإعدادية اللذان كنا
 يجلسان فى الصف معا .. بدأنا الشجار على أعداد
 (المغامرون الخمسة) ثم كبرنا نوعا فبدأنا الشجار
 على أعداد (رجل المستحيل) .. تصر أنت على أنك لم
 تقترض إلا خمسة أعداد بينما أصر أنا على أنك
 اقترضت سبعة .. الكلية .. سيارتك الأسطورية
 المرعبة التى كنت مستعدا أن تجوب بها القاهرة ست
 مرات يوميا .. والناس ينظرون إلى كتلة الخرودة هذه
 التى ما زالت تتحرك .. كانوا يقولون لبعضهم : يحى
 للعظام وهى رميم .. كأن سيارتك جاءت لتقوى إيمان
 للناس بالبعث وقيام الساعة ..

كبرنا يا أشرف .. صارت لنا زوجتان ، وهانذا أعمل
 فى طرف العالم مع قبائل لا أستطيع أن أنطق اسمها ..
 هل تحسبنى أمزح ؟ حتى اليوم لم أستطع نطق اسم
 (أما خوسا) بشكل صحيح .. لابد من أن تنطقه
 بطريقة باللسان على مؤخرة الأسنان كأنك لا توافق

على شيء ما ، وهو ما يكتبه الغربيون Tut tut ونكتبه نحن (توت) .. هناك - فاعلم - ثلاثة أنواع من الطريقة : طريقة أمامية تحدثها بأن تضع اللسان خلف الأسنان وتطرق .. طريقة علوية : أثناء نطق حرف O طرّق بطرف لسانك على سقف فمك .. هناك طريقة جانبية تبدو كصوت فتح سدادة الزجاجاة ...

كبرنا يا (أشرف) وسرعان ما نتجب ونشيخ ونتوكل على عكاز . ثم نموت ..

أمارس عملي في وحدة (سفاري) التي تقع قرب (ديربان) .. عملي متنوع لكنني أقضي أكثر الوقت في الجراحة كما تعرف .. كوئت مجموعة صداقات لا بأس بها ، وأخص الخطيبين الروس (فاسيلي سيميياكوف) والإيطالية (سيمونيلا ألبرتيني) .. (سميت ماكلانين) الأسكتلندي الظريف .. (مادلين) الطبيبة الفرنسية الرفيعة التي تنكرني بـ (برنات) كثيراً .. كاد الروسي يفقد حقيقته في حادث سطو مسلح تعرضنا له ، لكنه تعافى سريعاً .. إن البلاد هنا رائعة الجمال ، لكنها كذلك شديدة الخطر .. أعني أن لرى بلداً لأفريقيًا واحدًا مستقرًا .. حقاً لا أفهم السبب .. بعض الغربيين أصدروا حكمًا غير قليل للاستئناف

أن الأفارقة يتمتعون بمعدلات ذكاء IQ منخفضة ..
 هناك عالم اسمه (سيريل بير Burt) قضى حياته ينشر
 أبحاثا خلاصتها : أن مستوى ذكاء السود منخفض
 (هناك أبحاث مماثلة بصدد العرب بالذات) ، على أن
 الرجل توفي أخيراً فأعلن مساعده أن كل دراسات
 استلذه كانت ملفقة .. المشكلة أن الغربيين ينسون هذا
 الاعتراف ولا يتذكرون إلا الأبحاث نفسها ..

أحياناً ما يقلل المرء مضلة حقيقية تتحدى (سيريل)
 هذا .. مثلاً جاء إلى الوحدة منذ فترة طبيب أفريقي حاد
 الذكاء يدعى (فيليب مبيكي) .. إنه من (الخوسا Xosa) ..
 أو بعبارة ألق من (الخوسا) الذين اختلطوا بجنس آخر هو
 (خوى خوى Khoi khoi) .. هل يبدو كلامي غريباً ؟
 أعرف هذا .. أنا نفسي كنت أدهش من هذه الأسماء
 في البداية ، ثم صرت أنطقها بنفس السهولة التي تتكلم
 بها أنت عن الإسكندراتية والمنافية والبحاروة ..

كنت أتخيل (الخوى خوى) - أو (الهورنتوت) - كما
 رأيتهم في (سيربان) مجرد رجال بدائيين لولهم زيتونى
 ولهم عيون غائرة وقامات فارعة يثبتون في شعورهم
 بعض القواقع ... مرحون مسرفون فنرون ... لرقى من

(البوشمن) لكنهم أقل تحضرًا من (الزولو) و(البانتو) ..
لكن ما وجدته هنا يختلف ..

(فيليب) طبيب أمراض باطنية ، وهو شاب نحيل أسمر
له عينان حزينتان صغيرتان ، وبشرة سمراء زيتونية ..
فيها ملامح (الخوى خوى) كما حفظتها منذ جئت هنا ..
وقد قدم عدة طلبات للسماح له بالالتحاق بالوحدة ويبدو
أنه استعان ببعض الصلات القوية في (كيب تاون) ..
لم أتر أن وحدثنا مرموقة إلى هذا الحد ..

منذ البداية فوجدت بمستواه البارِع .. لقد درس في
(كيب تاون) على أيدى أستاذة بريطانيين .. إن لجنوب
أفريقيا ثلاث عواصم .. إحصائية في (جوهانسبرج) ..
وتشريعية في (كيب تاون) .. وإدارية في (بريتوريا) ،
لكن (كيب تاون) عاصمة علمية كذلك ..

أضاف (فيليب) لهذا قسما من العرقية الوهاجة ..
عرقية كالتي يظهرها العرب عندما يعملون في الغرب ،
وهذا جعل منه كيتا متميزا بحق .. من الصعب أن يقابل
المرء طبيبا باطنيا بارعا لهذا الحد لذا التصقت به قدر
الإمكان وتعلمت منه الكثير ...

إنه غامض صموت .. لكنك ترى نوعاً من الحزن
النبيل في ملامحه ، أحياناً يتحول إلى غضب مجنون
مكبوت .. وقد أدركت على الفور أنه لا يحمل للبيض
أية مودة .. إن علاقته بنائبة المدير (هانا فان بيردن)
مسيلة إلى درجة غير معقولة .. بينى وبينك أنا كذلك
لا أستريح لهذه السيدة .. لا أعرف سبب علاقتى المسيلة
بأى نائب مدير أعرفه ، لكنها الحقيقة ..

سألته عن قومه فقال باهتمام مريبة :

« ماتوا .. ذابوا .. تلاشوا .. لم يبق منا سوى
بضعة آلاف .. »

ثم أرد أن أطيل الكلام حول هذه النقطة ، فقد شعرت
على الفور أنه لا يرغب فى الإطالة .. لكنه أدرك أنني
مفتوح العقل والعين على كل شيء وإبنى نهم
للمعرفة ؛ لذا اتخنتى صديقاً إلى حد ما ..

فى الواقع كان يعرف الكثير عن إسرائيل ومشكلة
اللسطينيين .. وقد راح يحكى لى قصة اليهوديين مع القتل
فى جنوب أفريقيا .. ذات السيناريو تقريباً .. فى وقت ما
لم يكن فى العالم كله سوى حكومتين تمارسان التفرقة

العنصرية ، هما إسرائيل وحكومة الأبارتلايد Apartheid في جنوب أفريقيا ... لكن السيناريو في جنوب أفريقيا كان أسرع .. سرعان ما تكاثرت السكان السود إلى أن وجد البيض أنهم أقلية محاصرة مذعورة ، ثم سيطر السود على مقاليد الحكم وعادت البلاد لهم ..

إن هذا هو ما يدعو الإسرائيليون به (القنبلة الديموجرافية) ، وهي أخطر بمراحل من القنبلة الذرية .. لا تنس أن خصوبة الفلسطينيين عالية وأنه يوم يموت واحد من الفلسطينيين قد تنجب أم فلسطينية أربعة توالم .. هذا حدث فعلا مرارا ..

قال لى فى حزن :

- « لكن الأمر فلت بالنسبة لقومى .. لقد هزم البيض لكن لم يعد هناك (الخوى خوى) .. ما تبقى منهم عينة تاريخية ثمينة ، لكن لا قيمة لها كشعب مؤثر .. »

ثم سألنى فى نوع من الاستمتاع بجهلى :

- « هل تعرف سبب وجود المسلمين فى هذا البلد ؟ »

كنت أعرف أن المسلمين هنا يشكلون ٢٪ من السكان .. أى حوالى أربعين مليوناً ..

قلت في ارتباك :

- « إنهم المهاجرون من آسيا و ... »

- « هراء ! ... مهاجرون ؟ إن الهجرة الأولى بدأت في القرن السابع عشر وكانت إجبارية .. لقد جاء الهولنديون بالعبيد من أفريقيا وآسيا وكان أكثرهم مسلمين ... هؤلاء فضلوا البقاء في الكيب بعد رحيل الهولنديين وهم نواة المجتمع الإسلامي هنا .. بعد هذا جاء البريطانيون بعمال كثيرين من الهند هم المسلمون الذين استقروا في النatal .. أي إن المسلمين جاؤوا هنا كنموذج لاستغلال الأوروبيين للكم الأخرى ، ثم صاروا جزءاً من نسيج البلاد .. »

أعتقد بشكل ما أن هذا الرجل يخفى الكثير مما سأعرفه فيما بعد ..

فقط أعتقد أنه أهم ما حدث لي منذ جئت هنا ..

عزيزى أشرف :

هل سفلرت أخيراً ؟ أرجو أن تروق لك الحياة هناك ..
 أعرف كل ما تتوى أن تقوله فلا داعى للصراخ .. كل
 شىء غريب وغير معتاد .. فقط فى هذه اللحظات
 سوف تتذكر كم كان طعم الفول المدمس شهياً ، وكيف
 أنك تحب زحام شارع (صلاح سالم) ، وكيف أن الحياة
 بلا محلات كشرى مستحيلة .. لكن احمد الله على أنك
 فى بلد يتكلم العربية ويفهمها .. لو أضيف (الحرمان
 السمعى والكلامى) إلى ما تعانیه لوجدت نفسك فى
 كارثة حقيقية ، وهذا ما مررت به بالضبط .. لكنى
 اعتدت ذلك .. ليس هناك وضع لا يمكن اعتياده ..
 تذكر كلمات (ألبر كامو) فى قصة (الغريب) عن أنك
 لو سجنتم فى برميل لرحمت تتسلى بمراقبة المسحب التى
 تمر فى السماء فوق رأسك .. سوف تعتاد ما أنت فيه ،
 لكن لا توجد وصفات سحرية لذلك .. كن مرهقاً
 ومنهمكاً جداً .. ادخل فراشك حينما تعوى كل مفاسدك
 ألماً ويزن رأسك طنين .. هكذا تنام بلا مشاكل
 ولا تساؤلات عما يحدث فى الوطن .. نقطة أخيرة يجب

أن تقع نفسك بها : هؤلاء الذين تركتهم في الوطن
يستطيعون العناية بأنفسهم من دونك .. أنت لم تكن
جوهرياً لحمايتهم من الزلازل والبراكين وعصابات
الصفاحين .. سوف تسير الحياة من دونك ، وربما تسير
الفضل .. هذا يسمى كبريائك لكنه يريحك ...

بالنسبة لما يدور هنا فلا جديد ..

حدثت مشادة عنيفة بين نائبة المدير ونلك الطبيب
الأفريقي الذي حكيت لك عنه .. لقد اختلفت بعد كبير من
التوبيخات .. واضح أن هذا نوع من التحرش ولو كنت
مكاته لتجاهلت الأمر ، لكنه هرع إلى مكتبها وقال في حزم :

« لا أستطيع أن أتخلى عن مساء الثلاثاء .. »

نظرت له في ثبات وقالت بصوتها المبحوح الأجنس :

« هل من أسباب قوية لذلك ؟ »

قال في تهذيب فظ (لو كنت تلهم معنى هذا) :

« لا بد لي من زيارة قومي في (ناسكوالاند) .. »

هذه هي الزيارة الأسبوعية .. »

قالت وهي تجلس إلى مكتبها :

- « لا تغيبني مشاكلك الأسرية يا بني .. العمل هو العمل .. »

- « يمكنك أن تجدي من يأخذ هذه التوجيهية سوى .. إن لديك عددًا هائلًا من الأطباء الأوروبيين .. »

- « لكني اخترتك أنت .. »

قال في حزم :

- « لن أنفذ هذا الأمر .. »

- « أنت حر .. وكذلك أنا .. »

نظر لها في عيناها وقال في ثبات :

- « أنا أهتم غرضك جيدًا .. وأعرف أنك لا تريد شيئًا قدر إذلال طبيب من الخوسا .. لا علاقة لهذا بالعمل ولكن بالصفقات الشخصية .. سوف أشكو الموضوع إلى المدير .. إن د. (بالرنجا باليا) سوف ينصفني .. »

- « أتمنى أن تقابله في أسرع وقت .. »

ثم فتحت أوراقها وراحت تلون أشياء لتثبت له أنها خير مبالية بما يقول .. نظر لها طويلاً ثم غادر المكتب قاصداً مكتب المدير ..

لا أعرف ما دار في تلك المقابلة لكنه كان مقتنعاً كما هو واضح .. فقد قتعت المشكلة عند هذا الحد وظفر بـلجزة لثلاثاء ، وفيما بعد قلت لطبيبة الهولندية شيئاً على غرار :

« هؤلاء السود يفهمون بعضهم البعض .. إن ينصف طبيباً من الخوسا إلا طبيب من الزولو .. كلما حاول المرء أن يكون حازماً قهوه بالعنصرية والتحرش .. »

لكن هذه الأشياء كانت تقال سرّاً بالطبع ؛ لأن الزمن السعيد الذي كان فيه الهولنديون هم السادة قد ولى للأبد . إن ما قالته للمرأة ليس إلا نوعاً من (البرطمة) كما نسميها في العلمية المصرية ، وإن تغير من الواقع شيئاً ..

سألت (فيليب) عن سبب اهتمامه بيوم الثلاثاء إلى هذا الحد ، فقال إنه يجب أن يقابل أهله .. إن قريته هناك قرب (ناماكوالاند Namaqualand) على ضفاف نهر (جامتوس) .. ثم أضاف بلهجة ذات معنى أنه يزور قبراً عزيزاً عليه بشكل خاص ..

لم أسأله عن تفاصيل لكنى خمنت القصة .. حبيبته
الرفيقة الصمراء التي لفظت أنفاسها الأخيرة في يوم
ثلاثاء .. هكذا صار عهدًا مقدسًا أن يكون هناك في
ذات اليوم .. ربما ذات الساعة .. لا شك أن القصة
هكذا .. رومنتسية بلهاء ، لكن كلاً منا يملك ذات القدر
من البلاهة ، ومن دونها تصير حياتنا جافة كأعواد
للقصب الملقاة جوار أية معصرة تحترم نفسها ..

صحيح .. لماذا لا يتكلم (فيليب) عن الفتيات أبدًا ؟
إنهن لسن في عالمه على الإطلاق .. كأنه لم يظن بعد
لحقيقة أن العالم يتكون من ذكور وإناث ، أو كأن
للزواج لم يخترع بعد .. هذا جزء لم أفهمه ..

لم أفهمه إلى أن ظهرت (مادلين) في الصورة....

(مادلين كوفييه) الطبيبة الفرنسية الحسنة الثرية
التي تذكرك بـ (برنات) .. إنه معجب بها وهذا واضح
لكل ذي عينين .. الآن أفهم وأقدر أن هذا الفتى يملك
عينين وهرمونات ذكورية تؤدي عملها ..

لكنى لا أعرف الطريقة التي سيبلغ بها هدفه .. إنها
من أسرة فرنسية عريقة .. ولا شك أنها تمثل مطعمًا

للكثيرين هنا ، بينما من الصعب أن يفوز بها طبيب
عصامي من (الخوسا) مهما بلغ من براعة .. لكن ..
ربما كان هذا هو الحل .. على الأرجح سيفوز بها لأكه
من (الخوسا) .. إنه قريب من نوعه ، بينما يلتف
حولها طيلة الوقت هؤلاء الأطباء الأوروبيون شفر
للشعور متوردو البشرة زرق العيون .. كلهم يتشابهون
ولا شك أنها ستمتصهم جميعاً ..

وسط هذا الطوفان الأوروبي الباهت يظهر (فيليب)
فريداً غريباً عظيم الكبرياء ..

لأسباب كهذه اختارتنى (برنات) أنا لأننى بدوت
مختلفاً ..

لا أعرف إلام ستمسر الأمور ... فلننتظر ولتر ..



عزيزى أشرف :

كيف حالك ؟

أمس حدث شيء غريب .. كنت أقوم بجولة فى
البلدة المجاورة ، وعدت ليلًا .. وجدت زحاما وفوضى
علامة وسيارتى شرطة ..

شقت طريقى وسط هؤلاء باحثا عن دخان الحريق ،
لكن لا حريق هناك .. أبحث عن وجه واحد مألوف ..
كان هذا الوجه هو وجه الإيطالية (سيمونيتا البرتيني) ..
كنت تقف هناك لابسمة مطفها الأبيض ، وهى تتحدث فى
هاتفها المحمول بالإيطالية .. سئل من حروف الواو
والياء ينهمر من شفيتها ليغرق كل شيء .. حينما
رأيتى لوحت بيدها موحية ..

وقفت جوارها أرمى الزحام ، وأنتظر حتى تنهى
المكالمة ، ثم سألتها :

« كم طبيبًا مذهوحًا وجدتموه ؟ »

قالت ضاحكة ، وهى تدس الهاتف فى جيبها :

- « ليس لهذا الحد لكنك اقتربت جداً .. إنه رئيسك المباشر .. »

- « د. باليا ؟ »

- « بل أعني رئيسك المباشر فعلاً .. د. (ماكفادين) .. الأسكتلندي .. هناك من تحرش به وقد تلقى علة ساخنة .. »

- « هل هو ... ؟ »

- « تهشم له ضلعان .. كف مكسور .. لا أعرف إن كنت تعتبر هذه أخباراً سارة أم مقبضة ، لكنهم وجدوه ملقى جوار الرصيف والدم يسيل من أنفه وقد جاعوا به هنا .. »

هذا الأسكتلندي الظريف أحمر الوجه الساذج نوعاً .. من الذي يمكن أن يتحرش به ؟ إنه مثل (شارلي شابلن) و (ميكى ماوس) .. لكل يحبه ولا أعداء له .. لكن من قال إن (شابلن) كان بلا أعداء ؟ لقد تحرش به مكتب التحقيقات الفيدرالية FBI حتى (طفش) من الولايات المتحدة ، و (ميكى ماوس) كان يعتبر علماً فى الصين .. إذن حتى (ماكفادين) يمكن أن يكون له أعداء ..

هكذا شقت طريقى إلى أن وجدت (ماكفلين) نائمًا على
محفة وجراح كف وقتن يعنى بأنفه .. يبدو أنه سيحتاج إلى
جراحة .. للظريف فى الموضوع هو أن أنفه ازداد
احمرارًا وكنت أحسب هذا مستحيلًا .. مدت يدي أعصر
يده كناية عن المساعدة فصرخ ألمًا .. يبدو أنها لم تكن
سليمة بدورها ..

كثت القصة بسيطة جدًا .. كان يقوم بجولة فى
البلدة مثل التى أقوم بها .. دنا منه لثنان من الأهالى
وانتهزا فرصة أن المنطقة كانت مقفرة ، ووجه أحدهما
لكمة إلى أنفه .. ثم ركلة تراجع على أثرها للوراء فقط
ليسقط فوق ثالث كان يجلس القرفصاء وراءه ، كما كنا
نفعل فى فناء المدرسة الابتدائية ..

هكذا انتهال الثلاثة عليه ضربًا وركلاً وصفعًا ، ثم
أفرغوا ما فى جيبه وولوا الأكليل ...

عندما يتحرش بك ثلاثة أفرقة وهبهم الله سعة فى
الصحة والقوة ، فإن ما يصيبك يكون أكثر من الجراح
النفسية ..

بصعوبة قال (ماكفلين) للمارة الذين تجمعوا حوله
إنه من وحدة (سلفارى) وأنه بحاجة إلى أن يتصلوا

بها .. آى ! لا تحاولوا تحريكى لأن هناك ضلعًا محطمًا
كما هو واضح ..

كانت القصة عادية .. أنا نفسى مررت بها حرفيًا من
قبل .. وأذكر ما قاله لى المدير فى لقائنا الأول : هناك
٢٣٠٠٠ حادث قتل وسطو وسرقة فى العام الماضى
فقط .. إن من يدخل فراشه ليلاً دون أن يتعرض
لتهشم أنفه هو إنسان محظوظ ...

على أن هناك نقطة لم تبهث للراحة فى نفسى ، قلها لى
ونحن فى قسم الأشعة وهم يطمنون على حالة رنتيه :
- « لقد سألتونى إن كنت د . (ماكلارين) من وحدة
سافارى ؟ »

- « ماذا ؟ »

- « نعم .. أرادوا أن يعرفوا إن كنت أنا هو أم لا ؟ »
واضح أنه كان هو .. كل جزء فى جسده يشى بأنه
كان هو !

★ ★ ★

كان رأى المدير عندما عرف تفاصيل القصة عبقريًا
ويمكن تلخيصه كما يلى :

[٣ م - سافارى عدد (٣٥) رجال من رجال]

- « هذه عملية سطو .. »

لكن نائبة المدير قالت في عصبية وهي تضع قبضتها في خصرها :

- « لكنهم سألوه عن اسمه .. هذه عملية منيرة .. كانوا يبحثون عنه هو بالذات .. »

عاد المدير يميل على الطبيب الذي ثبتوا ضماكات على أنفه فبدأ مضحكا كمهرجى السيرك وسأله :

- « هل لك أية عداوات مع أهال هنا ؟ هل يكرهك أحدهم إلى هذا الحد ؟ »

قال (مكافلين) بصوت أخف جعل لكنته الأسكتلندية مستحيلة الفهم :

- « إتهم لا يهيمون بي حبا .. لكن لا يوجد من يتمنى قتلى .. »

تبأ لأسلوب (المخافضة) الغربي هذا لو كان عربيا لقال (لا) وانتهى الأمر ..

عدت أسأله من جديد :

- « أنت وثق من أنهم ضريوك لأنهم عرفوا من أنت ؟ »

- « كما أعرف بلينا لك (عمر عظيم) .. »

ككل الغربيين بصر على حنف (عبد الله) عندما ينطق اسماً عربياً مُعَبَّداً .. دعك من أنه ما زال بصر على أنتى (عمر) .. هذا الفتى واثق مما يقول فعلاً ..

لكن لا مشكل خطيرة هنا .. إن الألف سبيلتكم كما يعرف كل ملاكم ، والأضلاع تعرف كيف تغنى بنفسها .. ما دامت لم تثقب للرنة فلا يحتاج الأمر إلا إلى ضلعة لاصقة بسيطة ومسكن قوى للألم ..

الحقيقة أنتى لا ترى ما يهم فى هذا الحادث قتله كى أحمره ، لكنى أشعر بشكل ما أن له قيمة فى الأيام القليلة .. فقط سوف تكون حكماء غداً - إذا عشنا - وننظر بدهشة إلى ما نقوله ونفكر فيه اليوم .. ونسأله : كيف كنا بهذه القبلاهة ؟ لا ألفت عن تذكر مقطع شعر لنزار قبلى يقول :

« أتألمون ما نلنا فتضحكنى .. أبمثل هذا السخف قد كنا ؟ »

نعم .. بمثل هذا السخف وربما أسخف .. والدليل هو خطاب قديم لك عندي تقول فيه بوضوح : لن أسافر خارج مصر مهما حدث ومهما تغيرت الظروف ..

تحيتى لك وأنت تبدأ أسبوعك الثالث فى الغربية !

عزىزى أشرف :

تضايقت كثيرا من رسالتك السابقة التى تحكى لى فيها عن رب العمل ومشاكلك معه .. تقول : إنه بعلمك بتعالى غريب كأنك عبد لديه .. تلك النظرة التى ينظر بها العبد إلى خادمه .. فى الحقيقة يا أشرف لا أجد غرابة فيما تقول ، فكلنا نفس الرجل إذا أتيحت له الفرصة .. المشكلة أننا ننظر إلى أنفسنا نظرة تقدير لا نستحقها .. نحمل لنواتنا صورة لا حظ لها من الحقيقة .. كلنا نتعالى على من هم أقل منا ونشعر بأنهم بشكل ما مسئولون عما هم فيه ..

كان لى صديق مصرى يعمل فى شركة اتصالات ، وكان لا يكف عن الشكوى من معاملة رئيسه الأكملى له .. منتهى السعاجة والتعالى والمخف .. ثم إتنى قابلت صديقى المصرى هذا مع زوجته فى سوهر ماركت شهير .. كانت معه طفلاته وخادمة فلبينية شابة نصة .. فلبينية لأن هذه هى الموضة حتى لو كان راتبها بلبهم راتبك .. كانت الخادمة ترمى ثلاجة الأيس كريم بأشتهاء بينما ابتاع صديقى ثلاث قطع شهية من

الأيمن كريم له وزوجته وابنته ، وراحوا يتهمونها أمام الفتاة الجائعة .. رأيت كيف تعاملها زوجته مستعملة تعبيرات أكثرها رقيًا هو (يا زفتة) .. رأيت كيف يصفها بالغباء في كل لحظة .. رأيت طفلته وكيف تهيئها وتوبخها طيلة الوقت .. مزقت قلبي فكرة أن هذه الفتاة جاءت من طرف العالم الشرقي الجنوبي لتعيش مع أسرة لا تفهم لغتها .. وتعاملها بهذه الكراهية .. هي بالتأكيد لم تسمع حرفًا من لغتها منذ أشهر .. بالتأكيد لها أم وإخوة صغار ترسل لهم راتبها كله أول الشهر فلا يبقى معها ملزم يكفى لقطعة آيس كريم ..

عندما رأيت هذا الموقف ابتسمت في خبث .. فقط ابتعت الفتاة قطعة آيس كريم أمام نظرات صاحبي الغاضبة .. وقلت له :

« اعتقد أنك تفهم الآن أن رئيسك الأكماني لم يفعل إلا ما يفعله سواء في موقفه .. »

أحيانًا يُخيل لي أن الحياة سئم من الاضطهاد والتملى .. كل واحد يهين من هو تحته ويتمنى الصعود درجة لمن هو فوقه ..

نفس الشيء ينطبق على معاملتنا للحيوانات العجاء ..
 ذات مرة حكى لى عامل فى المستشفى الذى كنت أعمل
 به فى مصر كيف أنه تخلص من ثلاثة كلاب صغيرة ،
 عندما وضعها فى كيس قماشى أحكم غلقه وأغرقه فى
 للترعة (على سبيل المرح) .. كنت عناء تلمعان ، وهو
 يستمتع بكونه ظريفا إلى هذا الحد .. ساعتها دعوت الله
 أن يخلق كلبا فى حجم ناطحة السحاب أو (جونيلا) ليربط
 هذا العامل وأولاده فى كيس ويغرقهم فى النيل ..

« لماذا أؤذيك ؟ لأنك أضعف منى » .. هذه هى
 للمقولة التى نعيش جميعا عليها وبها ..



ولكن دعنا من هذه الفلسفة ولاقل إن عليك أن
 تتحمل .. ليس بوسعك أن تجعل رئيسك كما تشتهى ..
 بالنسبة لى لا توجد مشاكل .. أقول : بالنسبة لى ..
 أما بالنسبة للآخرين فهناك الكثير منها ..

هناك اعتداء قد وقع على طبيب نيوزيلندى ..

لقد كان عائدا بسيارته إلى الوحدة عندما وجد
 الطريق مسدودا .. هناك شجرة عملاقة تسد الطريق ..
 طبعا أطلق سبة وترجل كى يفهم ما هناك ..

فى هذه اللحظة تقض عليه ثلاثة رجال .. لم يوجهوا أسئلة ولم يكتفوا خاطرهم بتقديم أى تفسير .. فقط اتهاثوا عليه ركلاً واكماً .. سقط على الأرض محاولاً فهم ما يحدث ، لكن المرح لم يكن قد انتهى .. لقد ربطوه بحبل إلى سيارته وقادها أحدهم فى الطريق المعاكس وهو يصدر صيحات صاخبة ضاحكة .. وكما قال الطبيب فإن هؤلاء الأوغاد يجيدون القيادة .. لقد انطلقت السيارة بينما ذلك الطبيب يضرب جسمه كل حجر وكل نتوء فى الأرض ..

لكن غرضهم لم يكن القتل كما هو واضح .. سرعان ما ركض أحدهم ، وقطع الحبل وغادروا للسيارة والرجل .. فيما بعد تمكن هذا الطبيب الهائس بمعجزة ما من الوصول إلى الوحدة ..

كان ما قاله هو :

- « لا توجد علامات تميزهم .. إن السود يتشابهون بالنسبة لغربي مثلى .. فقط كانوا يتكلمون بلغة فيها الكثير من القرقة باللسان .. »

بالطبع هذا لا يفيد لأن أكثر اللغات هنا تستعمل
القرقرة .. لكن (الهوتنتوت) بالذات لهم سبعة خاصة
في هذا الصدد حتى إن لفظة (هوتنتوت) الهولندية
معناها (المتعشون) .. لهذا يعتبر للسود هذا الاسم
إهانة .. (لخوسا) يستعملون القرقرة بكثرة .. هناك
بعض لهجات الزولو تستعملها ..

- « هل لك أعداء ؟ »

- « بالطبع لا .. »

- « هل استلبوك شيئا ؟ »

- « لم يكن هناك وقت لذلك »

على كل حال سالت وحدة سافاري حالة من القلق ..
هذا ثلثي طبيب يتم الاعتداء عليه خلال أسبوعين ..
هل يحمل الأمر راحة ما من التحرش والترصد ؟

كما لك أن تتوقع زفت دوريت الشرطة حول الوحدة ،
وصدرت تعليمات صارمة للأطباء بالاحتراس ... لا داعي
للعودة في ساعة متأخرة .. لا تركبوا مع الغرياء ..
لا تزوروا السود .. لا

لواقع أنه من المستحيل أن تكون حريصاً أكثر من اللازم
 كما يقول الغربيون .. You cannot be too careful ..
 هناك دائماً خطأ سوف ترتكبه ، ويجعلك تتلقى علة
 مماثلة ..

كانت (هانا فان بيرن) للجنة واضحة وصارمة :
 - « إنهم السود يتحرشون بالبيض .. هذه لعبة الغصرية
 المضادة في أوضح صورها .. »
 قال لها المدير مقتظاً :

- « لا يوجد ما يدل على أنهم يختصون بالبيض
 بالهجوم .. لقد وثقت تلك الأرقام يا دكتورة (فان
 بيرن) .. »

- « ضحيتان من البيض حتى الآن .. الأمر واضح .. »
 لهذا استدعتني المدير إلى مكتبه وأعطاني إجازة بعد
 الظهر لهذا اليوم وباقى الأسبوع .. سررت جداً لهذه
 المعاملة الكريمة .. فقال لي في مرج :

- « لا تضع وقتك هنا .. حاول أن تخرج وتستمتع
 بوقتك ا »

ءرءت من عئءه مسرورا ممتنا وأءبرت (مكلفان)
بكل هذا الكرم الذى لا أسءقه ، فقال لى باسمنا :

- « أنت مجرد فلر ءءارب يا (عمر) .. لو تم الاعءاء
عئك وأنت ءاكن البشرة لكان معنى هذا أن الموضوع
لا ىءلق باللون .. أءقء أن المءبر ىءمنى أن ءعود له
مهشم العظام ممزق الأوصال ! »

يا للءباء ! ... لم أفطن لهذا من قبل ! ... وأنا الذى
لا أكف عن اءهام (مكلفان) بالمءالءة لم أعرف أنه
بهذا الخبء ...

فهمء سر كل هذا الكرم .. سىءربون فى باءءبارى
والءذا ءءىءا لا ىشكل خسارة فءاءة .. لم أعرف قط أن
للمءبر بهذه القسوة وهذا للءكفر العملى ..

- « بالمنسبة .. اسمى (علاء) ولىس (عمر) .. »

- « أسف .. أنت ءعرف أنكم ءمىفا (عمر) بالمنسبة
لنا .. (عمر الخىام) .. (عمر الشرف) .. ءتى عئءما
نقتبس اسما منكم نءءار اسم (عمر) .. صلاءا عن
الءنرال (عمر برالى) ؟ »

لنا فلر تجارب ؟

لكن لا متع .. سأجرب حظى .. إن حتمسى بخبرنى
إن هؤلاء الذين تم الاعتداء عليهم دفعوا ثمن لكون
بشرتهم ..

وقد أكون مخطئاً ... عندها لن يكون الأمر أسوأ من
علقة ساخنة ..

عزيزي أشرف :

ما زالت أمورك سيئة ؟ أتمنى أن أؤمن فعلاً أنك مظلوم ، لكني لم ألق الكثيرين من المظلومين ضخام الجثة صلع البرعوس في حياتي ..

حكيت لك كيف إتني قررت أن أستمتع بلعب دور فلر للتجارب الذي أعطانيه المدير ، فرحت أخرج في كل ليلة تقريباً .. أحياناً أتجه إلى (ديريان) أو أزور البلدة المجاورة .. فرصة لا بأس بها لشراء كل الأشياء التي تكسلت عن شرائها ..

طبعاً لا داعي لدخول الأرقعة المقلعة فلا يجب على المرء أن يختبر حظه أكثر من ذلك .. إن آثار الممكن التي انغمست في أحشائي ما زالت تذكرني أين أنا ..

فقط رحلت أمشي في شوارع مزدحمة ، فإذا جاء الليل بقوة عدت إلى (سافاري) وأنا أتوقع هجمة في أية لحظة ... أموا ما في الأمر هو حينما تنزل من (المبنى باص) لتجد أنك وحيد في طريق تحيط به

الأشجار على الجانبين ، فتمضى وحدك فى الليل فى
درب منحدر لأعلى مرهق .. بضع دقائق وترى من
موضع مرتفع للوحدة بكل جلالها تسبح فى الأضواء ..
إنها لا تنام لحسن الحظ .. هذا يعطيك بعض الأمل ..

هكذا تبدأ الهبوط .. للطريق منحدر مما يعطى
مشيتك نوعاً من الלהفة ، وأنت تؤكد لنفسك أنك لن
تخاطر ثانية غداً .. لكنك تعرف أنك مجنون وسوف
تفعلها غداً ..

كنت فى طور الهبوط هذا أمس عندما رأيت ذلك
الشبح واقفاً بسد الطريق على ..

وثب قلبى لغمى .. هذا الطريق مقفر ومعنى هذا أنه
يجب أن يكون مقفراً فعلاً .. من المخيف أن تمشى فى
طريق مهجور لكن المخيف أكثر أن ترى أحداً فيه ..

هكذا استعصت للقتال واتخذت وضعاً ممتازاً جديراً
ليكون ملصق فىسمى الأول .. « إنها الحرب .. حرب رجل
واحد اسمه علاء .. علاء عبد العظيم » .. أو « اسم الرجل
علاء عبد العظيم .. وهو بارع لدرجة أن تصدقها » ..
إلخ .. أى شيء من هذا للهراء ..

لقد بنوت أكثر لأفهم أن المعتدى مذعور أكثر منى
ومندھش لرؤيتى ...
إنه ...

- « دكتور (فيليب مبيكى) ! »

- « (علام) ! ماذا تفعل هنا ؟ »

- « وددت لو سألتك نفس السؤال »

- « لنا ذاهب لبيتى .. »

- « ولنا عائد إلى الوحدة .. »

وعرفت أنه يقيم فى شقة استأجرها تقع على بعد عشر
مئات من الوحدة .. هو لا يقيم فى ممكن الأطباء لأنه
لا يناسب علاقته للقبلىة .. قال لى وهو يتأبط ذراعى :

- « لماذا لا تمضى معى بعض الوقت ؟ إنها فرصة
كى ترى شقة رجل من (الخوى خوى) .. »

فكرت فى الأمر .. إنه على قدر لا بأس به من التهذيب
والرقى .. دعوة كريمة لاشك لئنى منيها ، خلصة لئنى
بالفعل لا أعرف عنهم شيئاً .. عرفت الكثير عن اللولو

والخوصا ، لكن لو كنت فى امتحان وطلب منى ان اكتب
خمسة أسطر عن (الخوى خوى) لرسبت بجدارة ..

هكذا مشينا فى الطريق المظلم الخالى نتكلم .. بشكل
ما كنت أعرف أن هذا بلده . هذا الطريق يعرفه .. الأشجار
تعرفه .. لن نتعرض لخطر ما ... إنه يقول للأشجار
والوحوش وللمعتدين المتوارين خلفها : دعوه .. فهو
معى !



كانت الشقة صغيرة كما توقعت ... نظيفة كما لم
أتوقع ... على الأكل لم أجد جثة فيل وقد اقتطعت منها
أجزاء للشئ ..

طبعاً هناك ركن عمالى فيه مكتبة هائلة الحجم ... كتب
طبية لا حصر لها بعضها عتيق جداً .. تشريح (جراى)
وكتاب (هاتشفسون) للفحص السريرى .. كتب الزمالة
للبريطانية .. كتب فلسفية وكتب عن تاريخ أفريقيا ..

دعك من هذا ... هناك صورة عملاقة للنساء أفريقية ..
ملاحها غريبة جداً بوجهها الأقرب إلى الطفولة والظنرة
الوجلة فى العينين كنظرة غزال خائف .. لم دقبق جداً

لم أر مثله من قبل .. مع فم كهذا تصير التغذية الكلية بالمحاليل TPN احتمالاً وارداً جداً ، فلا يمكن لمعلقة أن تدخل بين هاتين الشفتين .. للصورة عتيقة لها ذلك الطابع لرسوم القرن الثامن عشر ، أو كانتها لوحة من كتاب (وصف مصر) ..

تطلُّ هذه الصورة على متحف .. نعم متحف حقيقى للتراث الأفريقى .. عباوات ملونة زاهية تفرش الأريكة .. درع مطق يحيط به رمحان .. أصنام صغيرة .. أقبعة على الجدار ..

مد يده لجهاز الكاسيت فامتلت الحجرة بأصوات غناء قادم من مكان ما عبر الزمان .. طبعا هى أغنى (الخوى خوى) فلا داعى للسؤال .. أغنان كهذه لا تنبأها من أقرب محل كاسيت أو تجددها على قرص مضغوط .. لقد قام بتسجيلها بنفسه فى إحدى الليالى القمرية كي لا تندثر ..

مد يده إلى أحد التماثيل الصغيرة ، وقال :

- « هذه الأصنام تخص (الخوى خوى) .. كان قومنا يعنون لها أكبر اسمه (تسوى جواب Tsui - Goab) ..

إليه ينسب خلق الكون والإنسان .. كالعادة كان فى الأصل شخصية حقيقية .. طبيب ساحر بارع مات من ثم كثرت الأساطير حوله واعتبروه إلها .. «

هكذا القصة دقما .. على الأرجح كان (لوزيريس) بطلاً بشرياً ثم عبده الفراعنة بعد وفاته .. سألته فى حذر :

« هل ما زلت تؤمن بذلك ؟ »

« أنا مسيحي .. لكنى أعتبر هذه التفاصيل تراثاً يجب ألا يضيع .. »

ثم مد يده لتمثال صغير شربير الشكل ، وقال وهو يعرضه لى :

« عدوه التقليدى هو (جونااب Gaunab) .. هو الآخر كان قائداً معادياً وقد قُتل الكثيرين من (الخوى خوى) إذا حاربته (تسوى جوااب) حرباً عنيفة ، وفى كل مرة كان يهزمه .. فى للموقعة الأخيرة سقط (جونااب) على الأرض بلفظ أنفاسه ، لكنه تمكن من توجيه ضربة أخيرة حطمت ركبة (تسوى جوااب) .. لهذا اسم (تسوى جوااب) معناه (الركبة المكسورة) .. »

ابتسمت وكتمت رأبى فى هذا الإله المعوق الذى بعده (الخوى خوى) .. إن (فلييب) لم يعد يؤمن بهذه الأشياء كما قال ، لكنه على الأرجح لا يقبل للسخرية منها .. هذا هو منطق العصبية القبلية لا منطق الفيرة الدينية .. حتى لليهود من كارهى اليهودية مثل (فرويد) و (لزيوف) لم يكونا يطرقان أن يسخر منها أحد ..

- « إنه يقم فى الشرق لذا يصلى (الخوى خوى) تجاه الشرق صباحاً .. ويزعمون أنه يعيش فى سحابة يثبع منها الضياء والخير .. »

سألته :

- « من أين جاء (الخوى خوى) ؟ من هم ؟ »

تنهد ووضع التمثالين مكتهما فى رفق ، ثم قال :

- « هذه قصة طويلة ... »

قال (فيليب مبيكى) :

« معنى اسم (الخوى خوى Khol Khol) هو (رجال من رجال) .. لهذا للتعبير معنى آخر هو أنهم هم الناس الحقيقيون وما من أناس سواهم .. اعتزلوا عرقى بالذات كى يشعروا بالتفوق على القبائل الأخرى هنا .. الطريف أنهم يعتبرون أنفسهم أصل الجنس البشرى وأن كل الشعوب جاءت منهم .. فى الحقيقة تشعر عندما ترى (الخويسان) الأصلي أن له جذورا من آسيا .. ولو سمعت لفته لخييل لك فى لحظات بعينها أنها اليابانية . عندما تتحدث عنهم لا تقل إتهم (الهوتنتوت) .. هم يعتبرون هذا الاسم إهانة لأنه يعنى (المتلعثمون) .. فى الواقع كان الهولنديون يشيرون بهذا الاسم إلى امتلاء هذه اللغة بالصوت للقرقة والد (كليك) ..

« جاء (الخوى خوى) إلى هذه البلاد عام ٥٠٠ قبل الميلاد من الشمال بحثا عن المرعى وهربا من ذباب (تسمى تسمى) ، واختلطوا بقبائل (سلان) المقيمة هنا ، حتى إن الكثيرين يعتبرونهما قبيلة واحدة اسمها (خويسان) .. لكن هذا غير صحيح .. الواقع أن القبيلتين تنافستا كثيرا جدا على المراعى ودرجة الحروب الصريحة ..

« إن مجتمع (الخوى خوى) طبقى .. وإن كان أكثر
 رقباً من مجتمع (السان) أو (البوشمن Bushmen) ..
 البوشمن كانت حياتهم قاسية جداً ، فهم لا يعترفون
 بالروابط الزوجية وينقون بشيوخهم لبنات أوى .. ليس
 عندهم عد لأكثر من أربعة .. لعقهم لا تتجاوز ١٣ كلمة ..
 كنت تراهم يحملون جرة بها خمرهم المصنوعة من
 العسل ، وحول خصر الواحد منهم بيضتان نعام مليتان
 بالماء على سبيل الزمزمة .. طعامهم هو الحشرات
 والجنور .. أما (الخوى خوى) فكانوا يقيمون فى
 تجمعات فى القرى .. وكل قرية لها رئيس يورث
 منصبه لابنه لدى الوفاة . وقد فضلوا التجمع قرب
 للساحل حيث أجادوا الصيد وبرعوا فيه .. »

« حالياً يعيش أكثر (الخوى خوى) فى (الكيب) بعد
 ما قضى عليهم البيض الذين جاءوا فى القرن السابع
 عشر ، وقضى عليهم الجدرى .. الجنرى الذى أصابهم
 بسبب بطلطين بريطانية ملوثة جنبها لهم البريطانيون ..
 هل يذكرك هذا بشئ ؟ »

ارتجفت ، وقتت :

« الهندود الحمر والأمريكان .. نفس الحيلة .. »

أهتسم وقال :

« في كل مرة يثبت الجدرى أنه جنرال استعماري قلص
لا يرحم .. والغربيون يتحالفون معه تحالفاً قوياً .. كانت
هناك حروب عنيفة على أماكن الرعى مع الهولنديين .. ولم
يكن (الخوى خوى) محاربين بطبعهم وقد أنهكهم قصراع ،
ويمكن القول إن العام ١٧٠٠ شهد نهاية أساويهم في
الحياة تماماً .. على كل حال لم يبق من (الخوى خوى)
إلا خمسة وخمسون ألفاً تنشروا بين الكيب وناميبيا
ويتسوقا .. هناك عدد آخر اختلطوا بك (خوسا) .. لاحظ
أنهم يعتبرونني من (الخوسا) لا (الخوى خوى) .. »

ثم فتح مملكة يضعها على الأريكة ، وقال :

« انظر ما قلته علم لجناس بريطاني عن قومي .. »

وشرع يقرأ : « لا شيء أكثر غرابة من هؤلاء الأقزام
الأقردة .. من ناحية المظهر هم أقرب للقردة .. إنهم الآنسي
في سلم الخلق .. ينعمون في الكهوف وليسيت لديهم
فنون تميزهم عن وحوش صحراء (كالهارى) .. »

قلت في حرص :

- « كلمات قاسية لكنها بالتأكيد لا تخلو من صحة ..
تصور حياة هؤلاء القوم في القرن السابع عشر .. لابد
أنهم كانوا أقرب للوحوش .. »

أغلق المفكرة وقال في مرارة :

- « ربما .. لكن لهجة التعالى هذه .. لا أمقت شيئاً
مثل لهجة التعالى هذه .. للوغد البريطاني لم يستطع
أن يعتبرهم بشرًا أصلاً .. »

ثم لمعت عيناه وقال بلهجة من يريد تغيير هذا
الموضوع القذر :

- « هل تريد أن ترى قريتي معي يوم الثلاثاء القادم ؟ »
- « لكن ... »

- « صدقتي لن تنضم .. أنت حر لباقي الأسبوع وأنا
كذلك .. تعال معي لأن هناك شيئاً عزيزاً يجب أن تراه .. »

عزيزى أشرف :

كما قلت لك فى خطابى السابق... دعائى ذلك الطبيب الشاب من (الخوى خوى) إلى قريبته فوافقت ..

على أن مفاجأة صغيرة كانت تنتظرنى لدى عودتى لوحدة سافارى هى أن هناك هجوماً حدث على .. على نائبة المدير شخصياً .. بكتورة (فان بيرن) ..

كانت السيدة الشمطاء قد أنهت عملها واتجهت لتركب سيارتها ذات الدفع الرباعى ... سيارة رجولية جداً تناسبها فعلاً .. إنها توقف السيارة فى ساحة الانتظار المظلمة أمام الوحدة ، وهى ساحة لك أن تتصور منظرها .. ظلام دامس فيما عدا بعض كشافات النيون ، وصوت حشرات الليل لا يكف عن الصياح ، مع رائحة الليل الأفريقى إنها ..

لقد اتجهت المرأة إلى سيارتها فضغطت على زر (الريموت) لتفتحها ودخلت .. فى هذه اللحظة بالذات انقض رجلان على السيارة ... واحد وثب على المقعد جوارها وواحد وثب إلى المقعد الخلفى ، ووجدت نصل

سكين على عنقها يطلب منها أن تتطلق .. لقد كتنا فى
خطة للفهود كما قالت ..

تصرف منطقى وطبيعى جداً ، فلو دعيتى هذان البطلان
للاتضمام لهما لقبنت بحرارة .. للمرة الأولى بتصرف
هؤلاء المتصللون الليليون بشكل عقلانى عاقل ..

اتطلقت المرأة بالسيارة وهى ترتجف رعباً ..
لا أعرف كيف يمكن أن تفرع سيده كهذه .. ربما كتبت
للبراكين والزلازل قلادة على إخافتها ، لكن من الصعب
أن يقدر رجلان على ذلك .. أعتقد أنهما شجاعان فعلاً ..

أخيراً توقفت السيارة فى مكان مظلم فى الطريق القلتى
الذى شهد كل عمليات الهجوم السابقة .. وقد أرغمها
الرجلان على النزول من السيارة ثم لوسعاها ضرباً ..
بالركلات واللكمات كتعادة كأنهما يضربان رجلاً .. أنت
تعرف أن الرجال يغيرون طريقتهم فى القتال إذا قرروا
ضرب أنثى .. يشدون الشعر أو يوجهون الصفعات ،
أما حينما يضرب رجل أنثى بقبضته وركلاته فإن الأمر يبدو
غريباً .. هذا يعنى أنهما بالفعل أكرها أنهما لا يتعاملان
مع أنثى .. كتنا يتعاملان مع رجل هولندى فظ ..

هكذا تلقت المرأة علفة لا بأس بها ، ثم تطلق
الرجلان بالسيارة مبتعدين ..

على كل حال تم إتخاذ السيدة وعلفتا إلى سافاري تحكى
لنا هذه القصة .. قلت في فخر إتبا غرست إصبعا في
عين أحد الرجلين وإتبا قضمت أذن الثاني .. هذا يؤكد
ما قلته لك : هذان الرجلان باتسان تصبا للحظ .. لو
تأخرا وقتا أطول لانتهمت أحشاءهما ..

هذه المرة كان الذعر علما وقد حققوا معنا جميعا ..
لقد تكلم المدير أن الحوادث عرقية .. القليل أننى كنت
هناك في الخارج وعدت في ساعة متأخرة .. برغم
هذا لم يمسننى ضرر .. لقد أنقننى لون بشرتى ..

على كل حال لا يوجد أفريقى لا يتمنى ضرب (فان
بيون) بعنصريتها الاستعمارية وتعليها ومقتها للسود ..
إن أعداءها كثيرون جدا ..

والآن لنضع المزاح جانبا ..

أنت منطقتى للتفكير يا (أشرف) وقد قلت لى فى
خطبك السابق الشئ ذاته : (فيليب مبيكى) هو مدير

هذه الهجمات .. من قال العكس ؟ يشير أعصابى ذلك
الشخص الذى يصرخ فجأة : وجنتها ! .. الشمس هى
مصدر الضوء والحرارة فى عالمنا ! ...

هذه الهجمات تدل على درجة غير عالية من مقت
البعض .. درجة لم أرها إلا لدى ذلك الطبيب .. كل كلامه
عن استغلال البيض للسود وعن قومه الذين أفناهم
البوير .. إنه مونتور بكل ما تحمله الكلمة من معان ..

هذه الهجمات لم تبدأ إلا مع قدوم (فلاب) للوحدة ..
لماذا ؟ ولماذا استمات للاتحاق بالوحدة ؟

أعتقد أن الارتباط قوى والحق هو الأتراء .. هؤلاء
(باطجية) استأجرهم ، وهو يدفع لهم ثمن هذه الهجمات ..
أو هم من (الخوى خوى) المتحمسين مثله ..

نعم .. لكن كيف يمكن إثبات هذا ؟

لا توجد طريقة .. وإن لعب دور المجنون أو اللواشى
فى أواخر أيامى ..

على كل حال وجدت فى هذا داعيًا قويًا كى أقترب
من عالمه أكثر .. أنا متأكد أنه لا يريد أن يؤذنى ..

لماذا ؟ لأننى (غلبان) مطحون مثله .. كل مناقشاتنا
تدل على أنه يرانى أمام المدفع مثله .. أنا أسمر
للشرة أفريقى وقد استولى الغربيون على أهم بلدين
فى علمى العربى ، وإسرائيل تحاول جاهدة أن تكرر
مصير (الخوى خوى) مع أهلى الفلسطينين .. ثانيا
هو كان يملك ألف فرصة للفتك بى فلم يفعل .. لا أعتقد
أنه يدعونى إلى قريته كى يسلمتنى فى قدر كبير ويتسلى بى
على العشاء أثناء مشاهدة فيلم السهرة ..

سوف أذهب معه يا أشرف فإذا لم تصلك رسالة بالبريد
الإلكترونى بعد يوم الثلاثاء ، فاعلم أننى أسهمت فى تغذية
شعب (الخوى خوى) العظيم .. ربما كان هذا هدفا ساميا
لا بأس به بالنسبة لحياة لم تلد الكثيرين

عزيزي أشرف :

كما قلت سابقاً تقع قريته قرب (ناماكوالاند)
(Namaqualand) ، ويبدو أن تلك المنطقة من المعازل
المحدودة الباقية لـ (الخوي خوي) ..

وصلنا هناك عصر الثلاثاء فرحبوا به وبضيفه في
حرارة .. إتهم أناس طبيون فعلاً .. وبالفعل هم ينكرونك
بالآسيويين من سكان الهيمالايا .. لون البشرة زيتوني
والكثير منهم يشبتون القواقع في شعرهم ، لكنهم ليسوا
بدائيين جداً .. لقد عرفت البدائيين حقاً عندما سمعت عن
(التوركنا) وفي لكواخ (الكيكوكويو) .. لكن هؤلاء أقرب
إلى الفلاحين العائدين .. دعك من أنني غرقت في بحر من
أصوات (الكليك) حتى شعرت بأن هذه اللغة ليس فيها
إلا حرف واحد هو (تو) .. هذا جعل من المستحيل كتابة
مصطلحاتهم بالنسبة للغربيين .. هل تذكر فيلم (إسماعيل يس)
عندما قضى الرجل الساعة يحاول كتابة تلك الصوت الغريب
الذي يقوله الحوذي لحصاته ؟ هذه هي المشكلة هنا ..

التهمنا (الكلسانا) كالعادة مع شراب محلي أكد لي
أنه غير مسكر ، ثم ذهبنا لتحية زعيم القرية ..

كان الليل يدنو سريعاً لذا قال لي (فيليب) إن علينا
أن نسرع إذا أردنا العودة قبل الظلام ..
مشيت وراءه غير فاهم ..

إنه يغادر القرية .. يمشي في طرق وعرة ... يتساقط
بعض القوالب .. يداعب بعض الأطفال وامرأة عجوزاً ليست
في قمها سن واحدة .. خطواته سريعة جداً تذكرني بكل
ما أعرفه عن رشاقة السود وليفتهم ..

ثم يمشي .. يمشي بالمعنى الحرفي للكلمة في سهل
واسع تحيط به الأشجار .. المنظر يذكرني بالحدائق
المفتوحة أو المحميات .. نطمس الأرض البنية ونطأ
الأشجار فلن أدهش لو

رأيت أسرة من الأسود تلتهم فريستها تحت شجرة !!!
ارتجفت ولم أعد أشعر بساقي من تحتى .. إنها أسود
فعلاً ! لكنها ترقد في كسل تحت شجرة وهذا المخبول يمر بها
بذات الخطوة الوثقة كأنه يمر بأسرة ولادة من البط ..

المرات القليلة التي حدث فيها هذا معي كنت في سيارة
كما حدث في منتره (كروجر) .. تعرضت لهجوم الأسود

عندما جئت للحيوانات ، وذات مرة لاحقتى شبح أسد
يوم قضيت ليلة كاملة مع (للماساى) ..

— « ولارارى يى ا ! »

قال لى (فيليب) دون أن يلتفت للخلف :

.. « لا تنظر لها .. هذه الوحوش تعلى التخمعة وكسول
جداً .. لن تهاجمك ما لم تشعر بأنك عصبى .. ألم
يطمك أهلك ألا تركض أمام الكلب كى لا يطاربك ؟ »

★ ★ ★

كان هذا فى شارعنا فى شبرا .. وكنت طفلاً شقيفاً ..

رأيت هذين الكلبين الضالين يعرفان قطعة من العظام
على رصيف القصاب عند ناصية الشارع ، فدنوت
منهما وأصدرت صغيراً بغى .. على سبيل المشاكسة
لا أكثر ، لكنى فوجئت بهما يتحفزان ثم ينبحان .. وفجأة
وجدت أن ساقى أسرع من تفكيرى .. رحت أركض
مذعوراً .. فى هذه اللحظة تفتحت أبواب الجحيم ، ولم
أشعر سوى بأنهما يركضان ورائى وهما ينبحان .. أحدهما
كان يصدر صوتاً كالمحركات مما ينذر بالويل ..

رحت أجرى وأجرى وهما يجريان من خلفي ، بينما
للناس الجالسون على المقهى يصيحون في : -

- « كف عن ركض أبها الأحق ! سوف يعطرك ! »

لكن ساقى كنتا أقوى من صيفة للتعل هذه .. ما
نوع الإنسان الذي يتوقف ويتسم بينما كلبان غاضبان
يركضان وراءه ؟

وسرعان ما شعرت بالتأبين الحادين يخترقان قمائش
السراويل ليمزقا مؤخرتي !

لكني تعلمت للدرس هذه المرة .. لن يقتصر الأمر على
عضة في مؤخرتي لو قررت هذه الوحوش أننى عصبى ..
هكذا نظرت إلى الأرض ومشيت وراء (فيليب) وكنا لو شك
على الصراخ . أرى بخيالى أفراد أسرة الأسود تنهض
وتتبادل النظرات ، ثم تتطلق نحوى فى حماس .. عندها
لن يفيد أن أقسم أن (فيليب) قال إنها معالمة ..

لكننا كنا نبتعد بالفعل .. إن هذا الـ (فيليب) يعرف
ما يفعله .. إنه ابن هذه الأحراش .. فقط على بعد

خمسين مترًا نظرت للخلف فوجدت تلك الأسود لم تغير
جلستها .. كنا أتفه من أن نقلق راحتها .. شعورى
بالأهمية لا يعنى شيئاً بالنسبة لها ..

كنا نخترق أعصاباً عالية .. لتليجا ؟ لا يا أخى .. لتليجا
ليست هنا .. إنها فى السهول لتليجة حيث يبرز لك قلب
الروسى من خلفها .. هذه هى السلطانة على ما أفكر ..

ولكن إلى أين ؟ إلى أين ؟

فجأة رأيت ذلك النصب للمحاط بالنباتات .. إنه قبر
حديث معتنى به .. لكن له طابعاً فريداً لا يمت بصلة
لقبور المسلمين ولا المسيحيين ولا اليهود .. إنه قبر
واحد من هؤلاء القوم .. هناك شاهد يدلى فقير
ورسوم سانحة أفريقية الطابع ..

يقف (فريب) أمام القبر مطرقاً .:

فجأة يسقط على ركبتيه ويتهدل كتفاه .. كل شيء فيه
يتهدل حتى شعرت أن أتفه يوشك على لمس الأرض ..

إنه يبكى .. يبكى بلا صوت .. ثم يرفع عقيرته للسماء
وينشد شيئاً ما بتلك اللغة الغريبة التى لا أعرف كنهها ..
لكن للفرقة تنصرب حتى إلى مقاطع الأغنية .. ماذا

يقول ؟ ما هي الكلمات الرهيبة التي تصف هذا الموقف
الأكثر رهبة ؟

أنتو منه واضع يدي على كتفه لكنه لا يشعر ..

أكمل القبر بإمعان .. وسط الكتابة الغريبة اقرأ
بحروف لاتينية واضحة اسم (سارتجي بارتمان
Saartjie Beertman) ..

هذه هي إنن .. حبيبته التي فلقها على الأرجح ..
مضت دقائق ثم رأيته ينهض .. ومسح أنفه بكمه
ويقول لي :

- « هيا بنا .. »



عزىزى أشرف :

برغم أننى لم أفهم شيئاً ، فبأن هذا المشهد للرهبىب
هال فى ذاكرتى فترة لا بأس بها ..

مشهد الطوبىب الشاب العبرى وهو يركب أمام قبر
وسط السطقتا لثرى فى بشدة .. فشتت فى استخلاص أية
معلومات منه عن صاحبة القبر .. إتبا قرييته وكلى ..
هذا كل شىء ... لكن لماذا يحمل لها كل هذا للتقديس ،
ولماذا يختصها برحلة الثلاثاء هذه ؟

أسئلة كهذه لم يجب عنها .. دعت من أننى أعرف أن
الإجابة لا تستحق .. هى غالباً إجابة رومانية جداً
تشرعنى بأنه تافه سخيف .. رومانيتنا التى تبكىنا فى
أصرتنا لئلا لا تعنى أى شىء للآخرين .. إتبا عسلات
لا يمكن تداولها (لا فى بلدها وزمنها الأصليين كعسلات
أهل الكهف التى فسلوا فى شراء طعام بها ..

عرفت صديقاً لا يكف عن تصديق رأسى بالأم فقد
(هبة) .. ما شئنى بهذا ولما لا أعرف (هبة) ولا يهمنى
أن أعرفها ؟

النقطة الثانية هي أنني أجد صعوبة في ابتلاع فرضيتي السابقة .. هذا الفتى الذى ركع يركى أمام قبر ليس بالضبط للطارق الذى يستأجر (بططحية) لضرب الأطباء .. من يدري ؟ ربما كنت أنا وأنت أحققين كالعادة ...

هكذا عشنا تحت عباءة المساء .. لحسن الحظ لم تبال أسرة الأسود بنا .. لقد اختبرت حظى مرتين ، لكنى لن أختبره مرة ثالثة مهما حدث ..

إن موضع غضة الكلبين فى مؤخرتى ما زال يؤلمنى بعد كل هذه السنين ..

كنت جالسا فى الكافتيريا ألتهم طعام الغداء (الذى لا أعرف ما هو) عندما رأيتهما يقتربان وكل منهما يحمل صحيفة عليها أطباقه ..

استغرقت لحظة أطول من اللازم كي أعرف أن هذه ليست (برنات) .. إنها (سالين كوفيه) للطبيبة الفرنسية الراقية .. أما الرجل فكان (فلاب) طبعا ..

رأى فهز رأسه فى لطف ، ثم بحث عن مقعدين منعزلين فلم يجد .. هكذا اضطر أن يتكلم للفتاة إلى

حيث كنت أجلس أنا .. وقدرت أنه يتمنى لو تشقت
الأرض فابتلعتى بلا رجعة .. إنه منهمك فى إزالة
الأسوار المؤدية إلى قلبها ولا يريد من يضايقه الآن ..
لا بأس .. سوف أنهى طعامى وأرحل .. لكن لا تطلبنى
بالرحيل جافاً من فضلك ..

قال لى مداعباً :

- « كيف حالك ؟ »

ابتسمت ولم أعلق .. فقال للطبيبة الحسنة :

- « كان فى قريتى أمم .. لا أرى إن كان أحب
الوقت الذى أمضاه هناك أم لا ، لكن من المثير أن يرى
المرء ما تبقى من قري (الخوى خوى) .. »

كان يتكلم الإنجليزية .. وكانت هى تتكلمها وإن حكمت
تفعل تلك بلهجة مثيرة للضحك ، وقد اندهشت من أن
هناك من يجيد الفرنسية إلى الحد الذى أملاه أنا .. إنه
للمران .. الحقيقة أننى ضبطت نفسى ليلم للكاسيرون
للكر بالفرنسية عدة مرات ..

قال لى (فليب) وهو يشير إلى (ملان) :

- « (مللين كوفيه) .. هل تعرف من جدها الأكبر ؟ »

احمر وجهها خجلاً على حين قلت لنا فى سعادة :

- « السيد (كوفيه) طبعاً .. »

- « نعم .. ولكن هل تعرف عن أى (كوفيه) تكلم ؟ »

عن (جورج كوفيه) Georges Cuvier

(جورج كوفيه) .. هذا الاسم يتبدى وسط الضباب

كأنه لحن أغنية قديمة لم اسمعها منذ الطفولة ..

الثقوبة العامة .. وحدة الوراثة ... كان الاسم هناك ..

لنقتنى (فيليب) إذ صاح :

- « إنه للعالم الفرنسى العظيم الذى قام بدراسات

كبرى فى الوراثة والتصنيف .. طبيب بونابرت الخالص ..

تصور أن حفيده (كوفيه) معنا هنا! »

تشرقنا .. إن هذه لفظة نسخة من (برنات) فعلاً ..

أمرتها عريضة ثرية لكنها فضلت العمل فى أحراش

للزيت .. على كل حال لست منبهراً جداً بالأخ (كوفيه)

لأنى لا أفكر ما قام به بالضبط .. سوف أفتش عن

اسمه فى المراجع فيما بعد ..

بدأ (فيليب) يحكى لها .. يحكى لها الكثير عن
وطنه وعادات شعبه ومغامراتهم ، وكانت عناء تلمعان
فتلتمع عنانها .. إذن كان تقديرى للأمور صحيحا ..
هذا هو المدخل الذى اختاره للوصول لقلبها .. لن
يتظاهر بأنه غريب متحضر مثلهم ، بل سيكون (الخوى
خوى) جدا .. ربما أكثر من الحد للطبعى ..

كان يحكى لها أشياء مسلية .. بدأ ينشد لها بعض
الأغاني العتيقة بصوت خفيض ..

هنا تدخلت فى الكلام فقلت :

- « عم كنت تتكلم تلك الأغنية التى أنشيتها أمس ؟ »

- « إنها حزينة جدا .. »

- « وماذا تحسبنى أتوقع ؟ عندما يقف المرء أمام

قبر فهو لا يقنى لشم النسيم .. »

قال فى شرود :

- « تقول للكلمات : ترى أين أنت أيتها العروس ؟ ترى

هل ما زال أهلك يتكرون قنميك الصغيرتين تمرحان فى

الدار ؟ هل ما زال حبيب القلب يهمس باسمك كل غروب

عندما تشتعل النيران فى مساحة القرية ؟ أين أطفالك

للذين لم تتجبرهم ؟ هل لحقوا بـ (تسوى جواب) فى
سحابته الدلكنة ؟ »

ولمحت سمعة متجمدة فى عينه تلبى أن تزول وتلبى
أن تتحدر ..

للموضوع خطر وساخن جداً إذن ...

غادرت القاعة بعد ما فرغت من الأكل ، ونظرت إلى
الخلف لأجد أنه قد قرب رأسه من (مائلين) وراح
يكلّمها عن أشياء أخرى .. شعرت بحنين لتلك الأيام
الغابرة فى (سافارى) عندما كان اسم الفتاة (برنات)
والطبيب (علاء عبد العظيم) ...

لكن ألا ترى معنى يا أخ (فريب) أن هذه الفتاة بوضاء
البشرة وبلتلى هى من مصكر الأعداء ؟ هل جمعت قلبين
فى صدرك ؟ أم أنك تفكر بعقوبة المحارب التى تضرب
الرجال وتصبى نساءهم ؟ هل تتكرر عقدة (موسم الهجرة
إلى الشمال) رائعة (الطيّب صلح) ؟ حينما شعر البطل
أن الطريقة الأفضل لتقهر الغرب هى قهر امرأة غربية ؟
فعلاً أنا لا أفهم ..

فى المصاء تم الاعتداء على طبيب الماتى .. هذه المرة كان الاعتداء أكثر شراسة حتى إن الطبيب يرقد الآن فى العناية المركزة يكسر فى قاع الجمجمة .. عينان متورمتان مفلقتان تقريباً .. غيبوبة ..

لقد تحوكت وحدة (سافرى) إلى تكتة لرجال الشرطة .. تحقيقات فى كل صوب .. هذه الهجمات ليست عبقرية ولم يخطط لها بعناية .. إنها نوع من التحرش لا أكثر ، لكن هناك دوماً من يمشى فى ساعة متأخرة وحده فيهاجمه هؤلاء السود ..

للسبيل للوحيد لجعلنا نساعد الشرطة هى أن يثيروا فى قلوبنا الذعر ، وقد فعلوا هذا بنجاح .. قالوا لنا إنهم غير مسئولين وإن علينا أن نعى بأنفسنا .. لن يبقى من تعرضوا للهجمات أحياء فى كل مرة .. سرعان ما يكون هناك قليل ..

علقوا لافتة فى كل مكان بالوحدة تنفّرنا من العودة فى ساعة متأخرة أو الاطمئنان إلى الغرباء .. وأعتقد أننا أصبحنا بحالة من البارافرويا للحالة .. كل واحد يعتقد أنه مراقب وأن أنفاسه تحصى عليه .. لكنى كنت أفضل

حالا .. لقد وضعت نفسي في كل المواقف الممكنة التي
تفري بمهاجمتي لكن أحدا لم يفعل .. لقد تأكلت من
لثني لثفه من التحرش بي ..

وسط هذا كله قلبت (فيليب) وكان يزعم للمرور
على غابر الملاريا ويريد أن أكون معه .. كان المرح
يبدو عليه وهو يصغر لحنًا مرحًا اعتقد أنه فرنسي ..
سألني بطريقة عنبرة :

- « هل من مشاكل ؟ لا تبدو على ما يرام .. »

- « أنا كذلك .. »

ثم قلت بلهجة جدية :

- « أريد أن أتفرد بك بعض الوقت .. ثمة أمور أريد
أن أعرفها .. »

عزيزي أشرف :

هذا هو المشهد الإجباري كما وصفه كتاب السيناريو ..

نعم أنا مجنون .. من قال العكس ؟ لكنك تعرف أنني لا أستريح أبداً إلى أن ألقى الجواب عما يخطر بعقلي من أفكار وشكوك ..

لقد اتجهت معه إلى غرفة صغيرة في نهاية العنبر .. غرفة ذات جدران زجاجية مما نطلق عليها اسم المراقبة .. جلس وسماعته حول عنقه ومعطفه الأبيض مفتوح وعيناه تتساءلان .. أنت تعرف أن الأطباء كانوا يطلقون السماعاة في أعناقهم معدة للتثبيت على الأتنين ، حتى عرض مسلسل (ملت السوبر) للطبي الأمريكي الذي جعلهم جميعاً يطلقون السماعاة كالكوخية ..

قال لي :

« ماذا هناك ؟ »

بحثت عن بداية مناسبة للكلام ، وفي النهاية قلت :

- « أنت تعرف كم أحبك واحترمك .. لهذا لا أزيد لشائبة شك أن تعكر صداقتنا هذه .. بصراحة .. هل لك علاقة ما بما يحدث هنا ؟ »

- « ما الذي يحدث هنا ؟ »

- « حاولت الاعتداء على أطباء غربيين .. هذه الحوادث بدأت بعد قدومك .. أنت لا تحمل أى ود مفقود نحوهم جميعاً ، ومن الواضح أن المعتدى من داخل الوحدة ويعرف من يهاجم بالضبط .. هل تلمح فى كلامى اتهاماً ما ؟ »
بصوتية نظر فى عيني وقال :

- « نعم .. »

- « إذن لما نجحت فى توصيل رسالتى .. لكننى أكتفى بكلمة (لا) بسيطة وسوف تريحنى .. »

قال وهو ينهض :

- « بصراحة أنت أحمق .. هل تتوقع منى أن أختل عن دور الطبيب لأجند جريشاً من (الباطنية) ؟ ولو كنت قد فعلت هذا ، فهل تتوقع أن أعترف بهذه البسطة لمجرد أنك تريد هذا ؟ »

قلت في شبه توسل :

- « إنها صداقة .. أريت أن تلقى ليستريح ضميري .. »

- « ولما إن أريحك .. جرب أن تتعامل بعض الوقت .. »

ثم غادر الغرفة وعلى شفتيه ابتسامة قاسية أجسر
أن أصفها بالكريهة .. لقد قامرت وخسرت .. كنت
أعتقد أنه بذلكه الحاد سوف يعرف الفارق بين من
يتهمه ليحرجه ، ومن يتهمه ليريح ضميره .. لكنني
خسرت بهذا أهم صديق لي في هذه الوحدة ..

قلت إني مجنون .. هذا شيء لا تتناطح عليه شاتان
كما يقولون .

والأدهى أنني لم أعرف الإجابة بعد .. قل غامضاً
كما هو .. لو أنه انفجر غضباً وقال أشياء من قبيل
(لن أسمع لك .. احترم نفسك) .. إلخ لأراحني .. لكن
هذا للمفوض لم يذح الستار عن أي شيء ..

على كل حال أعتقد أن دوري انتهى عند هذا الحد .. على
الأقل لن ألقى علاقة سليمة فلا خوف على بهذا الصدد ..

مكتبة وحدة (سافاري) تقع في نهاية العمر الذي يشكل حرف T .. فيها في الطابق الثاني وعلى أن 'تمشي لها في عمر طويل تحيط به الأبواب من الجانبين .. ممر كاهومي جداً من ممرات أفلام الرعب إياها .. كأن فكرك هو المكتبة ولا فرار ...

تقع المكتبة قريبة جداً من مسكن الأطباء ، كأنها تذكرهم بأن وقت الراحة مخصص للدراسة .. هناك باب زجاجي كتب عليه ش ش ش ش ش ! « .. ثم تدخل لتجد نفسك في قاعة مكيفة حسنة التنظيم .. هناك سكرتيرة أفريقية صبغت شعرها باللون الأصفر تنظر لك بعينين متسلطتين .. لا أطيق هذا المنظر المفتعل ورأيت أن الله خلق لكل جنس بشرى ما يناسبه .. الآسيويون والأفارقة أجمل بالشعر الأسود فمن الحماسة أن تحاول أنت تغيير هذا لأنه ببساطة لا يليق بلون البشرة ..

- « معذرة .. أبحث عن كتاب أو مرجع يتكلم عن أعلام الطب .. »

- « الخزانة الثلاثة على يسارك .. كتاب (من هو من في العلم ؟) .. ليس لدى كتاب متخصص في الطب لكن هذا يؤدي الغرض .. هل يناسبك ؟ »

« اعتك .. »

كانت بارعة فعلاً ؛ لأنى وجدت أن هذا الكتاب يفوق
توقعاتى .. جلست إلى منضدة صغيرة وتفحصت الفهرس
المرتب أبجدياً .. هذه هى الأسماء القرهية التى نسينا أنها
أسماء بشر وتحولت إلى أسماء أمراض .. (ليمسون) ..
(هتشنسون) .. (هودجكين) .. (مالتورى) ...

(كوفيه Cuvier) ! هذا هو ... !

كانت الصورة تظهر رجلاً شديداً لكبرياء ثقل الظل
نوفاً .. أما النص فيقول :

« كوفيه ، جورج ١٧٦٩-١٨٢٢ »

« هذا العالم الفرنسى بعد من أهم الأطباء للعلم فى
القرن للتاسع عشر .. وبعد من أهم من تراسوا
أكاديمية العلوم .. »

« درس فى شتوتجارت حتى عام ١٧٨٨ ، ثم صار
معلمًا لأطفال أسرة نبيلة فى (نورمندى) . وذاعت شهرته
كلحد المؤمنين بالمذهب الطبيعى بعد هذا تلقى دعوة
للعمل فى باريس كأستاذ تشرح للحيوان فى متحف

لتاريخ الطبيعي الذي تم تأسيسه بعد الثورة الفرنسية ..
 وحينما صعد نجم (بوناپرت) فاز (كوفيه) بمناصب
 مهمة في مجال التعليم ، وهي مناصب ظل يحتفظ بها
 بعد عودة الملكية. وفي العام ١٨٣١ نال لقب باريون .»

« لقد عمل (كوفيه) في كل مجال علمي تقريباً .. وقيل
 إن بوسعه أن يعد تركيب هيكل عظمي كامل من عظمة
 واحدة فيه. وقد صار عمله أسس علم الحفريات الفخرية ..
 لقد أجرى تعديلات مهمة على تقسيم المملكة الحيوانية ،
 وقام بترتيب الحفريات والكائنات الحية ضمن هذا
 التصنيف .. وبرهن على أن الافتراض حقيقة علمية .»

« كان يؤمن أن الكائنات الحية يجب أن تصنف طبقاً
 للوظيفة وليس للمظهر ، وقد خلص جدلاً عنيفاً مع معاصره
 (جيجري) حول نظرية التطور والارتقاء .. قد افترض
 أن الأنواع الجديدة نشأت بعد سلسلة من الفرضيات
 المتكررة .. وكنت تدرسه لحوض أنهار باريس هي مصدر
 نظرية ترابط الطبقات الحيوية .. »

« كان (كوفيه) من أعداء نظريات (لامارك
 Lamarck) في التطور .. لم يؤمن بالتطور العضوي لكنه
 آمن بتكرار عملية الخلق بعد الكوارث الطبيعية .. »

أغلقت الكتاب ورحت الفكر ..

إن هو أقرب إلى علم تشريح مقلرن منه إلى طبيب ..

نعم .. أنا أنكر أشياء كهذه من وحدة الوراثة في كتاب التثوية العامة .. فوما بعد درست الوراثة بشكل مفصل ، لكن لم أتطرق قط لمواضيع الحفريات هذه لذا نسيت الاسم .. لقد سهوت لليل بالفتلة لداخلية والشاي الثقيل لحشر هذه الأشياء في عقلي ، ثم سكتها على ورقة الامتحان ونسيت كل شيء عنها بعد ذلك ..

نظرية الكوارث .. نظرية لاألس بها تصور نشوء أنواع جديدة .. وهذا إلى حد ما يفسر قصة الديناصورات .. لقد هلك في قروف غامضة من ثم سيطرت الثدييات على الأرض ..

بصرف النظر عما قلله (كوفيه) فلا يجب أن أنسى أن حبيبته هي تلك الرقيقة التي تعمل معنا هنا ، والتي يحبها (فيليب) .. هذا مثير حقاً ..

عزيزى أشرف :

قابلتها عندما كنت أجدول فى غابر الملايا .. الملايا
فى صورها العذبة طبعاً .. كنت واقفة هناك جوار فرش
مريض مسن تمازحه فنوت منها .. أشرق وجهها
كالعادة .. (مللين كوفيه) ..

قلت لها وأنا أحنى فى احترام مصطنع :

- « جئت من المكتبة حالاً .. كنت أبحث عن معلومات
عن جدك . »

احمر وجهها وقالت :

- « هل وجدت أن شجرة أجدادى مشرقة ؟ هل تنوى
أن تطلب يدى ؟ »

كنت أقول لها إتنى بالفعل تزوجت نسخة منها ، لكن
لا تفل للمرأة أبداً إنك لا تريد الزواج منها لو أتيت لك
الفرصة ، لذا ابتسمت بدورى وقالت :

- « كان اسم جدك يتردد فى كتب المدرسة
بلا لقطاع .. »

- « (فيلوب) يقول هذا أيضا .. إنه إنسان معتزل
وشديد المجاملة .. »
- « أرى ذلك . »

وحبيبتها بهزة رأس وابتهت .. الحقيقة فنى كنت فمنى
أن أصارحها بمخاوفى لكن هذا يفتقر إلى الحكمة .. لن
تفهم مرادى .. ما جدوى هذه المعلومة وكيف أبرهن
عنها ؟ مجرد فلتون سخيفة ، ولمسوف تكون النتيجة أن
لقد صدأكتها هى الأخرى .. لم يحدث قط أن تدخلت
فيما لا يعنينى وسمعت شيئا يرضينى ..
هكذا فضلت الصمت ..



على أن الأحداث تطورت بسرعة جهنمية فى هذه
الليلة .

لقد وجدت خارج الوحدة عددا أكبر من اللازم من
سيارات للشرطة .. أضواء .. صخب .. لابد أن هناك
اعتداء آخر ..

لكنى شققت طريقى وسط المستراحين لأجد ذات
الطبيبة الإيطالية (سيمونيتا) تجرى مكالمة هاتفية ..
فضوليون جداً هؤلاء الإيطاليون وهم يوماً أول من
يعلم ..

سألتها فى غباء عما يدور هناك فقلت فى مرح :

- « لقد اعتقلت الشرطة هؤلاء المعتدين ... »

- « ياله من خبرا ! »

- « يبدو أنهم استعملوا أسلوب الكمين .. لقد اقتعدوا

(فاسيلي) بأن يكون هو الطعم ورافقوه بغاية من بعد ..
كنت مهمة (فاسيلي) أن يجول حول الوحدة فى الظلام
بلا تقطاع .. وسرعان ما وقع هؤلاء فى الشرك .. لقد
لاحظ به أربعة منهم وأوشكوا على الفتك به ، لكن رجال
الشرطة ظهروا من سماء صافية وقبضوا على المعتدين .. »

(فاسيلي) هنا ؟ لهذا السبب تبدو فخوراً كالبطلة ..

إنه (فتاها) وقد حقق هذا النصر ..

فى هذه اللحظة ظهر المدير ونائبته وسط الزحام ..
كان مرهقاً لكنه راض .. وصاح فىنا :

- « هلموا يا شبيب .. لقد علت المياه لمجاريها .. »

لنا منه طبيب يونانى بمثلته فى عصبية :

- « لملا كانوا يقطون تلك ؟ »

- « يمكن أن أقول إن هذا ليس من شأنك ، لكن أرى

أنكم تستحقون توضيحاً لقد اعترف هؤلاء على الفور

ومن دون أن توجه أسئلة .. لقد قمنا بفصل أحد فتي

المختبر من (الخوسا) منذ فترة .. د. (فلان بيردين) هى

التي فعلت هذا .. مجرد رجل مهمل غير نظيف اليد ، لكنه

أصر على أننا فصلناه بسبب الاضطهاد العرقى ولقسم على

أن ينتقم من كل البيض هنا .. هذه اللعبة لا تفشل أبداً ..

يبدو أنه أقتنع بعض الرجال بنبل قضيتته ، وهكذا راحوا

يعلمون تلك الاعتداءات الانتقامية .. إنها قصة مؤسفة

لكنها حادثة فردية لا تكل على شيء .. لقد انتهت أزمته

الأبارتايد .. كلنا زملاء هنا والكفاءة هى المقياس .. »

ثم عاد يكرر كلامه بنبرة أعلى :

- « فليد كل لعمله .. لقد صاد السلام ونامت الحملان

مع الأسود .. »

رأيت (فاسيلي) وسط الزحام ، وقد وضع منديلًا على
أنفه .. برغم كل شيء قد تلقى لكملة أمت أنفه .. ويبدو
أننى رأيت مصابًا ثلاثة أرباع الوقت الذى عرفته فيه ..
بنوت منه ومسحت على رأسه فتلوه .. قلت له مترحًا :

- « أنت تمارس هوايتك الدائمة فى التحول إلى
سجادة . »

قال وهو يتمخط بما :

- « آى ! إن هؤلاء السود أقوياء حقًا .. بالمناسبة
أحد هؤلاء له عين مصابة والآخر قضمت أنفه ..
سيكون من العسير عليهما تفسير هذه الإصابات .. »
- « إنها نوبة المدير الرقيقة ذات الأكوثة الطاغية .. »

وهكذا سلك الهدوء المكان ..

يمكنك أن ترى يا أشرف أننا كنا أحققين كفاءة ..
كنت تستتاجتنا خطأ ، ومن الواضح أننى مدين باعتذار
رفيق الدكتور (فيليب) .. أحمد الله على أننى لم أطلع
الدكتور (مفلين) على شكوى فلا داعى لخسارة اثنين
إذا كان بوسعك أن تخسر واحدًا فقط ..

عزيزى أشرف :

حزنت بشدة لهذا القرار الذى اتخذته أنت بأن تنهى
العقد وتعوده .. لكأد أفسحك بالاستمرار حيث أنت والتحمل ،
لكننى أعرف أن التصالح لا تجدى وأنت اتخذت قرارك
على الأرجح منذ زمن .. أعرف أن سوء المعاملة
عامل مهم بالنسبة لك .. سواك قد يتلع ذلك ويصمد ،
لكنك حار الدماء سريع الغضب مثلى ، ولطالما أوقعك
طبائع هذه فى مشاكل لا حصر لها ..

أضف لهذا موضوع عدم حصولك على مستحقاتك ..
وددت لو نصحتك بأن تصبر قليلاً ، لكننى أعرف أن
(من على الشط عوام) ، وأن الكلام سهل حيث أنا ..
لربما كنت أنت فى الجحيم بعينه ..

على كل حال سيتيح لك هذا فرصة أن تسمع أول
صرخة لابنك .. هذا اللوغد الصغير سيكون أصلع بديننا
كالبه .. ولن أدهش لو نزل من بطن أمه ركبنا سيارة
(١٢٤) عتيقة ..

نعود إلى أخبارى ...

كما قلت لك، كنت الوحدة في أحسن حال من الهدوء ..
 لم يعد أحد يخشى أى شيء .. لقد عرفنا طرفاً من
 التحقيقات .. بالفعل هي قضية عرقية واضحة ، لكن ذلك
 النفس الذى تم فصله كان وغداً بالفعل ولا يستحق أية
 رحمة .. فى هذه القضايا بكثرة الشهداء ويسهل على
 موظف كسول مرتش أن يلبس ثياب البطل الذى عوقب
 لأنه أسود .. لكنه من قبيلة قوية ، وقد عرف كيف
 يحشد قومه من خلفه .. وصار من السهل أن يتحرش
 بأطباء الوحدة الذين يعرفهم واحداً واحداً.

أمس كنت أقوم بجولة فى العنبر حينما قابلت (مناين)
 الطبيبة الفرنسية الحسنة .. لقد حكيت عنها - (برنات)
 وأرسلت صورة رقمية لنا نقف أمام (سفلرى) .. سررت
 أن (برنات) جنت غيظاً .. أنت تعرف هذه اللذة الخبيثة
 التى يشعرها الرجل حينما تفتاظ امرأته لدى رؤيته مع
 أخرى .. معظم الرجال يستمرلون هذا الشعور وربما
 يبالغون فيه ، إلى أن بلغت الحبل منهم وتصدق نساؤهم
 ما يتخرسون به ... وهكذا بلغت الحب بالتدريج ..

سررتي أن (برنات) أصبحت بالغيرة ، برغم أنه
لا معنى لأن يحب المرء لثنتين من (برنات) .. عندي
واحدة وهي كلفة جداً ، فلو راح قلبي يعبث بعيداً لاختار
واحدة تختلف عن (برنات) في كل شيء .. سوداء
الشعر .. سمراء .. بلع .. كنت أعتقد على كل حال أن
هذا مستحيل ولكن شيئاً كالفيروس تسبب ...

لماذا أقول لك هذه التفاصيل وأنت ثرثار كما عرفت
دعماً لا تهمل حبة اللؤلؤ في أمك .. ؟

أقول إنني قابلت (مابلين) في الغابر ، وكانت
مشرقة كالشمس منتعشة ..

قالت لي بعدما انتهت من عملها (هنا لا يخلطون
بين العمل والمرح) :

- « على فكرة .. أريت أن تعرف أن (فيليب مبيكي)
قد طلب يدي ، وقد وافقت .. »

دهشت للخبر لكنني توقعت كما قلت لك من قبل ..
أكره أن أكون على صواب طيلة الوقت لكنها الحقيقة ..
راجع خطباتي السابقة تجد هذه الفقرة :

« على الأرجح سيفوز بها لأنه من (الخوسا) .. فيه
 فريد من نوعه ، بينما يلتف حولها طيلة الوقت هؤلاء
 الأطباء الأوروبيون شقر للشعور متوردو للبشرة زرق
 العيون .. كلهم يتشابهون ولا شك أنها سلمتهم جميعاً ..
 وسط هذا الطوفان الأوروبي الباهت يظهر (فيليب)
 فريداً غريباً عظيم الكبرياء .. لأسباب كهذه اختارتنى
 (برنات) أنا لأننى بدوت مختلفاً .. لا أعرف إلا
 مستير الأمور .. فلنتنظر ولتر .. »

كنت دقيقاً كلاماً .. فقط استبدل كلمة (الخوسا) بكلمة
 (الخوى خوى) ، لأنى لم أكن أعرف مدى اعتزله بنفسه
 إلى هذا الحد ..

إن (فيليب) شخص رائع .. فقط لو لم تكن غلدة
 (موسم الهجرة إلى الشمال) تستحوذ عليه ، فبأنى
 أرجو لهما كل خير .. كل شيء فى هذه العلاقة يذكرنى
 بقصتى مع (برنات) .. فقط هو أكثر براعة وتمكناً
 علمياً منى .. ولما أكل منه تعصباً مضاداً ومرورة ..

قلت لها :

.. « لقد فآل كلاهما بأفضل واحد ممكن .. دعك من
ولعى الخلفى بالعلاقات التى تهتم حلجز اللون والجنسية ..
أشعر وقتها أن العالم يستعيد صورته التى خلقها عليه
الله وشئتأها نحن .. »

مدت يدها فى جيب المعطف فأخرجت علبة لآمن
صغيرة ، ولست فى يذى قطعآين .. لا أعرف علاقة
هذا بالموضوع لكنه تطوع لا بأس به ، وقالت :

.. « غداً الثلاثاء .. لقد دعأنى لقريبته فى هذا اليوم
المهم بالنسبة له .. »

الثلاثاء ؟ نفس الطقوس والبقاء أمام القبر و .. و ...
سوف تحب هذه الطقوس لكنها لن تتحمل أن تراها
تكرر طيلة الوقت ..

كنت مسرورة كالأطفال ، فلا أحد يعرف الكثير عن
(الخوى خوى) .. يمكنك أن تقابل للزولو فى كل مكان ..
يمكنك أن تقابل الهنود والعرب ، لكن (الخوى خوى)
صاروا عملة نادرة فعلاً ..

هكذا حكيت لها بسرعة عن زيارتى للقصورة هناك ..

- « سوف تمرين أمام أسرة من الأسود ، وسوف ينصحك ألا تصلى بالذعرا »

- « سألني به .. إنه يعرف ما يفعله .. »

- « هذه هي المشكلة .. يجب أن تقتنى الأسد الأول أن (فليب) يعرف أكثر »

وتبادلنا حديثاً طويلاً ثم فترقنا ..

سأحكي لك عن زيارتها في رسالتي القادمة .. فقط أطلب منك أن تسترد مرحك القديم قليلاً ..



عزيزي أشرف :

ليوم الأربعاء .. كنت اليوم أعلن بعض مرضى الإيدز .. إن جنوب أفريقيا بلد فريد من نوعه .. هنا تجد خليطاً عجيباً من التخلف والأمراض الأفريقية مع التقدم الذي يدير الرعوس .. أحياناً يخل لك أنك تمشي في (لندن) وأحياناً تتخيل أنك تمشي في بقعة مهجورة في (زامبيا) ..

لم أعتد بعد هذا الوباء الذي حل بجنوب أفريقيا .. الإيدز .. طاعون العصر للشنيع الذي لم نعرف له حلاً بعد .. وهم هنا يطبقون أسلوباً عدوانياً للعلاج اسمه HAART .. أسلوب فعال فعلاً ونتائجه لا بأس بها لكنه مكلف جداً ..

مشكلة الإيدز الأساسية هي ارتفاع ثمن أدويته .. ولا شك أن العلم الذي سيوصل إلى لقاحه سوف يدخل التاريخ ليحتل مكانه إلى جوار (باستير) و(كوخ) وسواهما ..

من الغريب أن (فيليب مبيكي) و(ملايين) لم يعودا أمس .. هل قررا المبيت في تلك القرية ؟ إنه لم يتخلف

قط عن مرور صباح الأربعاء هذا .. وهي ؟ كيف أمضت
ليلتها في قرية بدائية وبيلة لا تعرف عنها شيئاً ؟
سألني عنها طبيب فرنسي ، فقلت إقنى لا أعرف ..
لماذا يسألني أنا بالذات ؟

★ ★ ★

عرفت ضمن عناصر الإيدز مريضاً من جنوب أفريقيا
اسمه (دانييل تويك) .. إنه مصاب بالمرض منذ عامين ،
وهو شاعر أفريقي واسع الثقافة .. التحية المنتشرة لكثرة
والنظرة الحلوة التي تخترقك ... لكني لم أسأله عن ظروف
إصابته بالمرض .. على كل حال قد كنت قاعدة تقضي بأن
٢٠٪ من مرضى الإيدز هنا لا تنب لهم فيما أصابهم ..
البلقون يمكنك أن تخمن قصتهم بمجرد النظر ..

كان (دانييل) من الطراز الأخير .. لقد أصيب بالداء
لأنه استحقه ..

على كل حال عملي هو علاجه لا أن أحاسبه على
تلك الليلة السوداء التي .. بالإضافة إلى أنه كان رجلاً
قريباً بالفعل ..

جلست معه في شرفة غرفته المظلمة على حديقة
(سافاري) تتكلم عن البلاد ، وبالطبع كان لي اهتمام خاص
بـ (الخوي خوي) لأن صديقي الأهم منهم .. هكذا
عرفت منه أكثر ما أعرفه اليوم عن هؤلاء القوم ..

قال لي وهو يتصفح مفكرة بجواره :

« هناك قصيدة بالإنجليزية كتبها عن (سارتجي
بارتمان) .. رمز (الخوي خوي) اليوم .. تقول كلمتها .. »
وبدا يقرأ ..

لكن الاسم لي جرسًا في ذاكرتي .. أين سمعت هذا
الاسم .. ؟

« يقف (فيليب) أمام القبر مطرقًا ..

فجأة يسقط على ركبتيه ويتهدل كتفاه .. كل شيء فيه
يتهدل حتى شعرت أن ألفه يوشك على لمس الأرض ..

إنه يبكي .. يبكي بلا صوت .. ثم يرفع عقيقته للسماء
وينشد شيئًا ما بتلك اللغة الغريبة التي لا أعرف كلماتها ..

لكن الفرقعة تتعرب حتى إلى مقاطع الأغنية .. ماذا يقول ؟
ما هي الكلمات الرهيبة التي تصف هذا الموقف الأكثر رهبة ؟

★ ★ ★

لاحظ نظرتي الشاردة فقال ، وهو يتحسّن لحينه
للمشعة في ضيق :

- « أنت لا تركز معي .. »

- « هذا الاسم .. (سارتجى بارتسان) . »

- « سارة .. في العادة نطلق عليها اسم (سارة) ..
هذا هو الاسم الذي يفهمه الغرب .. »

قلت كالحالم :

- « القبرا ! »

ابتسم في حنكة ، ومد يده إلى ورقة تم قصها من
صحيفة ، وقال لي :

- « أنت زرت قبرها ؟ هذه الورقة تحكي لك كل شيء .. »

نهضت حاملاً الورقة لصاح في غرفة :

- « لأن تسمع القصيدة ؟ »

— « فيما بعد .. فيما بعد . »

لقد نجوت بأعجوبة .. عندما بصمَّ واحد من هؤلاء
الشعراء على أن يسمعك تحفته الأخيرة ، فليس سوى
الديناميت بفكر على إسكته .. إن رأسك يوشك على
الانفجار فلا يتقصه إلا هذا القبوس الأخير ..

وهكذا اختليت بنفسى فى غرفتى ورحلت لقرأ للمرة
الأولى قصة (سارة) ..

بعارة أخرى قصة (فينوس الهوتتوت) ...

★ ★ ★

فينوس الهولنتوت

رفيقة لها عينان لوزيتان حزيتان وفم لثقي .. فم
لا يمكن أن تدس ملعقة فيه ..



فتاة (الخوى خوى) التى
ولدت فى القرن الثامن عشر فى
شرق الكيب على ضفاف نهر
(جامتوس) .. أجمل فتاة فى
القبيلة .. ومن أجلها يقتل للفتية
ويتبارون على رمى الرماح
لمعرفة من قواهم نراغا .. لكن
القصة معروفة .. من سيفوز

بها هو الذى يملك القطيع الأكبر من العاشية ...

(سارتجى بارتمان) لو (سارة) كما صاروا يدللونها ..
(سارة) لتضرة .. (سارة) الجميلة تتأود فلصدة النبع
لتملا للجرار .. إنها تحمل كل مقاييس الجمال عند
(الخوى خوى) ومنها تلك المؤخرة الممتلئة التى
يراهها الأوروبيون مضحكة ، لكنها نروة الحسن عند
هذه القبائل ..

بالنسبة للهولنديين لم يكن قوم (سارة) إلا مجموعة من البدائيين لصوص الماشية ، وكان الهدف الأهم هو استئصالهم تماماً ..

لقد اختطفت (سارة) عام ١٨١٠ .. بيعت لطبيب بريطاني اسمه (بنلوب) ، ووضعت على ظهر سفينة تتجه إلى إنجلترا .. لم تعرف أنها لن ترى وطنها أبداً .. وأنها ستكون رمز الاستغلال العنصري وقسوة الإنسان على أخيه الإنسان ، حتى إن قصتها ستروى في أكثر من عمل درامى ...

لم تكن معاملتها هي أفضل معاملة في الكون . لقد نقلوها مباشرة إلى سيرك (بيكاديللى) لعرضوها هناك .. أطلقوا عليها اسم (فينوس الهوتنتوت) .. وكان نشاطها اليومي بسيطاً للغاية : كانوا يعرضونها عارية في كل مكان تقريباً ، والناس يدفعون ثمن التذاكر في حمال ... لم يكن (الخوى خوى) يميلون للعرى لكن الأوروبيين جعلوها تتعرى حتى تتمشى مع تصورههم للمرأة البدائية .. كانت (سارة) صغيرة الرأس ممثلة للمؤخرة بشكل مبالغ فيه كعادة قومها ، وهذا دفع الأوروبيين للمجىء

لرؤية هذه المعجزة ، والصور المرسومة لها في تلك الفترة تظهرها عارية تمامًا تقف في مكان كحلبة السيرك ، بينما مدرب وحوش - مدرب حقيقي - يضرب مؤخرتها بعصا للتدريب .. وكان يأمرها بأن تقف أو تجلس مع الكثير من (آلى لوب) طبعًا ..

كان هناك إسمان .. إسمان واحد فقط غضب لما يحدث ، والسبب هو أن لون بشرته كان يشبه لون بشرتها .. إنه ثالر من (جملكا) يدعى (روبرت ويدربين) .. الحقيقة أن (ويدربين) كان شخصية مثيرة للاهتمام .. وقد اعتقل مرارًا .. من أسباب هذه الاعتقالات أنه طالب بحق العبيد في أن يثوروا ويقتلوا سيدهم بلا محاكمة ! في فترة من الفترات النادرة التي لا يكون فيها في السجن ، بدأ حملة تطلب بإعادة الإنسانية لهذه الفتاة ..

هكذا وجد البريطانيون أنهم مضطرون لمنع ظهور سارة في السيرك بعد الضوضاء التي أحدثتها هذا الثرثار ..

لكن المحكمة البريطانية احتجت بأن (سارة) مرتبطة بعقد مع (بنلوب) .. طبعًا كان هذا هراء .. فما الذي تعرفه (سارة) عن العقود أصلاً ؟

بعد أربع سنوات بيعت لمتعهد وحوش مفتومة من باريس .. وانتقلت إلى باريس لتعرض على المسارح تحت سيطرة مدرب وحوش .. بل إن تشريحها الغريب تسال إلى الأوبرا لتقدم كوميديا ساخرة لسمها (فينوس الهوتنتوت) .. والدلائل تشير إلى أن من اشتراها كان يستغلها فيما هو أصوا على سبيل للحصول على المزيد من الأرباح ..

لقد تم استغلالها ، لكن هذا لا يختلف كثيرا في الواقع عن استخدام فتيات حسناوات للفيديو كليب ، ولا يختلف عن مسابقات ملكات الجمال .. إنها المرأة في لحظة صورة لها .. مجرد حيوان جميل .. لكن (سارة) كتبت أكثر نبلا ، لأنها لم تفعل شيئا بإرالتها بل أرغمت على طول الخط ..

ماتت (سارة) عام ١٨١٦ في سن الخامسة والعشرين .. هذا يخبرنا بنوعية الحياة التي عشتها في أوروبا للودود الرحبة .. ويقال إنه دام (الزهري) ..

لم يترك أحد على (سارة) ، ولم يلحظ أحد أنها ماتت وحيدة غريبة في بلد بارد .. لكن يمكن القول إن بقاياها لم تذهب سدى ..

هنا يدخل الدكتور (جورج كوفيه) إلى المسرح ..
 العالم الفرنسي المرموق الذي رأى (سارة) ذات مرة
 على المسرح ، فوصفها قللاً :

« إن في حركاتها نوعاً من البدائية والتزوة بذكرنا
 بالقردة .. »

ومنذ ذلك الحين وقع العلم في غرام (سارة) .. الغرام
 لأنها كانت عجيبة طبعاً .. هناك قصة غرام مشابهة بين
 بطل كمال أجسام وعالم التشريح (هنتر Hunter) الذي
 كان يريد أن يتبرع له البطل بجسده وهو حي من أجل
 تشريحه ! طبعاً ثار البطل غضباً وطرده العالم ، لكن
 العالم كانتها قصة رعب قل يطارده في كل مكان إلى أن
 مات البطل هلعاً ، وبالفعل ظفر (هنتر) بالجنة ! إن
 هؤلاء العلماء عباقرة لا شك في هذا ، لكنهم يكونون
 أحياناً في غفلة القسوة ويعاملون الإنسان كشيء ..

تموت (سارة) فيأخذ (كوفيه) الملهوف الجنة
 فينتزع منها المخ وبعض الأجزاء الحساسة ، ويحتفظ
 بهذه الأجزاء في الفورمالين ، ثم يحتفظ بهيكلها
 العظمي ويصنع قالباً للجسد .. ويجري دراسات تشريح

مقارن يثبت بها أنها أقرب إلى القرد .. بالذات إنسان
للفيلة (أورانج أوتان orangutan) .. برغم أنه لم ير
(أورانج أوتان) قط .. هكذا استخدم (سارة) ليثبت
أن الأوروبي مخلوق بشكل أفضل وأسمى من
الأفريقي ..

قلت رفقت (سارة) معروضة في متحف باريس حتى
عام ١٩٩٤ .. موضوعة في قاء زجاجي ملفوف بورق
أبيض .. أي إنها لم تتل للراحة حتى بعد الموت ، وطالب
(مديلا) بعودة رفقتها إلى أرضها .. فلم يستجب الفرنسيون
لطلبه إلا عام ٢٠٠٢ ، وبعد حملة مكثفة شارك فيها
لجنة جامعة وشعراء ومخرجو سينما .. في قنصلية سمح
مجلس الشيوخ الفرنسي بالإفراج عنها .. هناك كثيرون
قتلوا من أجلها .. لكنها لا تعرف هذا .. للمرة الأولى
تلمس أجزأؤها ترى الوطن منذ عام ١٨٩٠

كنت امرأة أفريقية وحيدة بلا عون ولا أقارب
ولا مال في أوروبا .. ثم مدت فلم يهتم أحد إلا بعرض
بقلباها .. الجانبون رأوا أنها تشبه القرد ، وغير الجادين
سخرها منها ..

إنها الدليل الحي على قسوة الإنسان وتشنجه بالشعارات
بينما هو يأكل لحم أخيه حيًّا ..

« أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ..
لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا
بالتقوى .. »

عزيزي أشرف :

كنت القصة مؤثرة أليلة ..
لكني لم أجد وقتاً للدموع ..
لقد فطنت للمرة الأولى إلى نقطة خطيرة هنا ..
(جورج كوفيه) !

(جورج كوفيه) .. للعالم الفرنسي العبقري الذي
قدم الكثير لعلم التشريح المقارن .. العنصرى المغرور
الذي لم يحترم (سارة بارتمان) حية أو ميتة واعتبرها
إلى القرد أبنى .. الوحش الذي احتفظ بمخها وأعضائها
للتناسلية في وعاء زجاجي ليعرضها للعالم ...

هذا لك (جورج كوفيه) هو جد (مائلين) ...

و (مائلين) الآن مع (فيليب مبيكى) .. (فيليب
مبيكى) الذي بيكى على قبر (سارة) كل ثلاثاء .. هي
الآن معه في قريته ... !

هل أخطأت الاستنتاج ؟

لقد بذل (فيليب) جهداً جهيداً كي يكون في وحدة
(سكاري) وجهداً جهيداً كي يفوز بإعجاب (ماتين) ..

قال لي (فيليب) وهو يشير إلي (ماتين) :

- « (ماتين كوفيه) .. هل تعرف من جدّها الأكبر ؟ »

احمر وجهها خجلاً على حين قلت أنا في سراحة :

- « السيد (كوفيه) طبعاً .. »

- « نعم .. ولكن هل تعرف عن أي (كوفيه) تكلم ؟ »

عن (جورج كوفيه) Georges Cuvier .. العالم
الفرنسي العظيم الذي قام بدراسات كبرى في الوراثة
والتصنيف .. طبيب بونابرت الخاص .. تصور أن
حديقة (كوفيه) معنا هنا ..

هناك صورة عملاقة لقناة أفريقية .. ملامحها خربية
جداً بوجهها الأقرب إلى الطفولة ولتنظرة لوجلة في العينين
لتنظرة غزال خلف .. لم يبق جداً لم أر مثله من قبل ..

١٠٦ صلفارى ... (رجال من رجال)

مع فم كهذا تصور للتغذية الكلية بالمحاليل TPN احتمالاً
ولذا جداً ، فلا يمكن لملقحة أن تتخلل بين هتين الشككتين ..
للصورة عتيقة لها تلك للطابع لرسم للقرن الثامن
عشر ، لو كانتها لوحة من كتاب (وصف مصر) .. »

★ ★ ★

ما السبب فى كل هذه الحماسة ؟
الآن لرى كل هذا على ضوء خالت ..
ولرتجف ..

★ ★ ★

عزيزى أشرف :

لم تكن لدى خطة ..

إن مخاوفي أسخف من أن أحكيها لأحد .. لكن كيف
أبقى هنا وحدى أتحمل أثباب القلق التى تقضم روحى ،
خاصة إبنى الوحيد الذى يمكن أن تكون عنده فكرة عما
حدث ...

حاولت أن أهتم بعمل ، واعتبرت نلسمى مجرد معنوه
آخر .. إتهم كثير هذه الأيام .. لا يجب أن أكون عبثياً
لمجرد أبنى قنا ...

لكنى عند المساء كنت قد فقدت صوابى بالفعل ..
ما الذى سأخسره ؟ سوف أسمع بعض عبارات المسخرة ..
لن أخسر (مبيكى) لأننى فقدته بالفعل ..

وجدت قلمى تحملانتى إلى مكتب المدير د. (بالبنجا
باليا) .. أمر بالسكرتيرة التى تنتظر لى فى دهشة ، ثم
أدخل المكتب لأجد للمدير شرب الشمر ذا الشارب الأبيض
الكث الذى يذكرنى ببانتجاة الصقرا عليها قطعاً من

الظن الأبيض ، وكان يتكلم فى الهاتف ورفع حاجبيه
فى دهشة لدى دخولى وأشار لى بالجنوس ..

لما انتهت المحادثة نظر لى متسللاً ، فابتعت ريقى ..

بله .. هذا أنا .. لكنى سألعب الدور حتى نهائيه .. رياء ..
ليست للشجاعة هى مواجهة طلقات الرصاص دائماً ..

- « سيدى .. هناك ما يدعونى للظن بأن الدكتور
(مائين كوفيه) فى مشكلة .. »

- « أنا منصت .. »

- « أعتقد أنها .. لن أقول مختطفة ، لكن لنقل إنها
عاجزة عن العودة .. »

- « وهذا ما يقضى للشك فى الأمر ... »

قهرت قصتى ورحلت أقبل وجهه الأسود المغمم
بالحكمة .. كان قلنا .. سررنى هذا .. على الأقل لم
يعتبرنى مخبولاً ..

قل لى ، وهو يطفى منفاً أمامه :

« أنا شديد الحساسية تجاه أية احتمالات لخلطات عرقية هنا .. ليس هنا .. ليس الآن .. لهذا ملأنى حدث ضرب الأطباء هذا ذعرا .. لكنى بالفعل أعتقد أنك تبذل نوعا .. لم يتأخرا كثيرا عن الوحدة .. للحالة تخلف عن العمل ، لكنها لم تدخل فى عداد مسببات القلق .. »

ثم داعب شاربه وقال مفكرا :

« لكن .. (كوفيه) .. هم م .. لا يمكن أن تكون مصادفة .. لقد بذل (مبيكى) جهدا عنيقا للاتصال بالوحدة .. هل يكون السبب أنه عرف أن حفيدة (كوفيه) تعمل فيها ؟ كلما فكرت فى الأمر بدا لى معقولا .. »

كان فى دوامة التردد للشهيرة ، وفى النهاية رفع سماعة الهاتف وقال لى :

« ليس ألامى إلا حل واحد .. سوف تبعث بك إلى تلك القرية .. ابحث عنه .. ابحث عنها . حاول أن تتقن ما تقدر عليه .. »

هكذا ترائى من جديد يا (كُشرف) متجها إلى القرية ..

نفس الطريق ، لكنى هذه المرة وحدى .. فقط سائق
(سفارى) هو الذى يجتاز به الطريق إلى ناماكوالاند ..
رأيت من النافذة ذلك النهر العملاق الذى لم ألاحظه فى
رحلتى السابقة .. للقرويات يفضلن الآتية والفضيل فى
الماء بينما يستحم أطفالهن العراة إلى جوارهن ..
مشهد يمكن أن تراه فى أى جزء من ريف مصر ..

سألت السائق عن اسم هذا النهر العظيم ، فقال :

- « نهر (جامتوس) يا ككتور .. »

أعرف هذا الاسم .. على ضفافه ولدت (سارة) يومًا ما
منذ قرنين ..

وشعرت بقشعريرة تجتاح عمودى للفكرى ...

كانت القرية تلتو ..

وصلناها عند قدوم المساء فترجلت من السيارة ..
وتنفست بعضى ليلاً لليل الأفريقى رلتى ..

المشاعل فى كل مكان ، وقد وقف الكثيرون يراقبوننى
فى فضول ..

بنوت من أول رجل وجنته وسألته بصوت عال : .

- « د. (مبيكى) .. (فيليب مبيكى) .. »

بدا عليه الذعر للغضب وتراجع خطوة إلى الخلف
وقال بتجانزية رديلة :

- « ليس .. هو .. هنا .. هنا هو ليس .. »

لكنى أدركت على الفور أنه يكذب .. إتهم لا يتقون
بالتغريب القلام في الظلام ..

هنا سمعت صوته يقول في ثقة وهدوء :

- « تعال يا مكتور .. أنا هنا .. »

(باقى رسالة علاء)

كان يقف على باب أحد الأكواخ الطينية .. لم أعرفه
 فى البدء لأنه كان يرتدى تلك الثياب الغريبة .. إنها
 ثياب وطنية طبعاً لكنها مزيج فريد من العرى والريش
 والقماش زاهى الألوان .. وقد ثبت بعض القواقع إلى
 شعره .. ثم أر أحد (الخوى خوى) وقد لبس ثياباً
 وطنية جداً إلى هذا الحد ..

كان يتسم فى ثقة ثم أشار لى ، وكلم القوم بلغة
 لا أعرفها فهذا روعهم قليلاً ..

اعتقد أنه قال شيئاً على غرار (هذا معى فلا تقلقوا) ..
 أو (ده راجل غلبان) كما نقول فى العامية ..

قال وهو يشير لى كى أدخل للكوخ :

- « أنت نكى كمهدى بك .. استنتجت كل شىء .. »

قلت وأنا أدخل :

- « بالعكس .. لم استنتج إلا أنك هنا .. »

كان يتصرف بشكل مختلف .. نوع من الثقة لقرب
إلى الغرور ، كما يتكلم ويمشي وينظر زعماء المافيا
في الأفلام .. لقد تغير كثيرا جدا ..

دخل الكوخ كان عجيبا .. هناك مشعل وقصعة بها
طعام لا يمسر الناظرين ، وكتاب طبي سميك .. خليط
غريب جدا .. وقد جلست متوترا أنتظر ما سيقول ..
لكنه أثر الصمت ..

قررت أن أسأل لها :

- « أين (ملايين) ؟ »

قال بلا مبالاة :

- « إنها هنا .. »

- « وماذا تفعل هنا ؟ »

- « إنها خطيبتى إن لم تكن تذكر هذا .. »

جذبه الأسود الزيتونى يلمع فى ضوء الذهب ، وأشعر
أن عينيه زجاجيتان ..

قلت فى ضيق ، وقد نفذ صبرى :

- « لكتور ... أرجو أن تكف عن المروغة .. لا تقل
إن حفيد (كوفيه) هي الفتاة الوحيدة التي رآقت لك
على ظهر الأرض .. »

قال وهو يشعل غليوناً غريباً أقرب لمعلقة كنست
فيها أعشاب عطرة :

- « لهذا رآقت لي .. لأنها حفيدته .. »

- « لن تستطيع إبقائها هنا للأبد .. »

- « لا أرى سبباً يمنع ذلك .. »

وفجأة ازداد عصبية بلا سبب مفهوم .. طوح بالظنون
في الأرض وركله وصاح في غضب :

- « هل تعرف من هي (سارة بارتمان) ؟ إنها أم
جنتي ! ... كل قبيلتنا تتوارث قصة اختطافها وكيف
حسبوها قد ماتت .. قالوا إن البيض خطفوها وقتلوها ..
لما أنا فعشت حتى قرأت القصة كاملة ... ليتهم
قتلوها فعلاً .. أم جنتي جردوها من ثيابها وعرضوها
عارية في السيرك ، وحينما ماتت عرضوا أجزائها في
متحف التاريخ الطبيعي .. لم يعرف قومي هذا لحسن

حظهم ، لكن المعرفة سقطت على كاهلي لأنى قرأت
 صحف الغربيين ومجلاتهم بلقهم .. عرفت الحلقة المفقودة
 فى قصة أم جنتى ، ثم جاءت رفاقتها من فرنسا .. عرفت
 من فعل ماذا .. كان الانتقام مبرراً نلت به بالكامل .. وصار
 على أن أنتقم لروحها .. لن يهين أحد (الخوى خوى)
 وينجو بلا عقاب .. نحن رجال من رجال .. هل تظلم
 شرف الاسم ؟ (الخوى خوى) .. »

قالها ومد يده يلتقط عصا كانت معلقة على جدار
 الكوخ ، وراح يطوّحها كأنه يؤدى فقرة فى سيرك .. ثم
 يكن يهدنى لكنه يستعرض قوته ..

آى ؟

إن الأمور سيئة فعلاً ...

عنت أسأله بصوت مبحوح :

— « أين (مائلين) ؟ »

لمعت عيناه ، وقال وهو يجنبني من معصمي :

— « تعال معى .. »

عرفت سبب هذه المشاعل التى تنشرت فى القرية ..
 عرفت سبب هذا الزحام .. ولماذا بقى الأطفال ساهرين ..
 عرفت سبب هذه الرقعة الخلابة التى صنعوها بأجسادهم
 فى وسط ساحة القرية .. كلهم يتفنون حول ساحر القبيلة ..
 عرفت لماذا يردد الجميع لفظة (الخوى خوى)
 بلا انقطاع ..

فى وسط الساحة رايت الرجال يجرون ما بدا لى كثور
 برى هلج .. ثور صغير الحجم جداً .. ثم لمتمعدوا فالحركت
 لها (ملاين) مقبدة اليدين .. كانت كاسية لكنها تلبس
 جوالاً قنراً صنعوا فتحات لتخرج الأطراف منها ..

كانت منكوشة الشعر فى حالة جنون تقريباً .. ويبدو
 لها أنها انتهت ما لديها من دم مع فجاء دور الدم .. اعتقد
 أنها تلقت ضربات كثيرة كذلك ..

أرغموها على الوقوف فى وسط الحلبة على حين توجه
 (فليب) نحوها فى تودة ، وهو يطوح عصاه فى الهواء بتلك
 الطريقة الشبيهة بالمسيرك ، كأنه هو سيد الحلبة .. يقول
 عبارات بلعهم التى لا أفهمها .. ثم ينظر نحوى ويترجم :

.. « ها نحن (الخوى خوى) نعرض عبتنا للبيضاء ..
 لن نتملى فى إهانتها بل سنفعل بالضبط ما فعله أجدادها
 بجنتنا .. لاحظ أننا متفوقون أخلاقياً فهي مستورة للجسد ..
 حتى هذا حرمت منه جنتنا .. »

ثم مد يده ليمسك بشعر رأسها الأصفر فى قبضته
 بقسوة فهببت غاضبة :

.. « (فليب) .. أنت مجنون !! »

بل هو مخمور على الأرجح .. كيف لم ألاحظ هذا ؟
 هنا امتدت عشرات الأترع تحول بينى والنهوض ..
 إن الهجوم عليه انتحار ..
 لكنه لم يلحظ اعتراضى قال وهو يجذب شعرها حتى
 ليوشك على تمزيقه :

.. « هذا الشعر الأصفر .. بلون الموت .. بلون القيء ..
 بلون للمرض والسقم .. »

ثم ترجم ما قلته ، ومد يده إلى خدها :

.. « لون للبشرة الشاحب كأنها ملئت منذ دهور ..
 كيف يمكن أن نصف بالجمال كأننا بهذه البشاعة ؟ كيف
 يعتبرون أنهم أجمل منا وأكمل ؟ أين اللون الأسود

٦١٨ سافلى ... (رجل من رجال)

للجميل وأين الشعر الخشن للملء بالحيوية ؟ إتنى
لا أرى هنا امرأة ولكن معلقة معلقة .. »

هتلت (مائلين) فى وهن :

- « أنت مجنون ! »

إن الصلصة لقسية .. لقد جاءت هذه القرية مع حبيبها
ورأسها محشو بالروماتسية ، فإذا به يريد عرضها فى
سيرك .. ترى هل شعرت (سارة) بشيء كهذا ؟

مد يده بالعصا لضربها على مؤخرتها حتى صرخت
ألمًا وهتف :

- « هذه المؤخرة النحيلة كأنها مصلبة بالنرن ..
أين هى من مؤخرات الأفارقة اللينة ؟ لماذا يعتبرون
أنهم هم البشر ولا بشر سواهم ؟ »

ضحكات الأطفال تتعالى مع صيحات الاستحسان ...

وجه لها ضربة أخرى أمرا :

- « هيا .. تحركى على الحلبة ليراك قومي ! »

ثم عاد يصيح :

- « هذا هو ما حل بابنة قريتنا (سارة بارتمان) ..
وحيدة معذومة الحيلة في بلد غريب .. هذا هو انتقامي
من الفتاة البيضاء .. أما لو هلكت من فرط المعاناة
فلسوف أقوم بتحنيطها وأعرضها على كل زائر .. هذا
ليس قاسيًا .. لقد فعل جدّها (كوفييه) ذات الشيء
بجديتي .. هيا .. تحركي ! »

مرغمة مشيت بضع خطوات ثم تعثرت فسقطت فقط
لنتهال عليها ضرباته ..

- « واهنة كطفل .. تفتقر إلى جمال وصحة نساءنا ..
قل لي ماذا يمكن أن يروق لكم فيها ؟ إنها أخط منا
بمراحل .. »

هنا لم أتحمل أكثر فوثبت من مكاني ..

على الفور لم أعرف ما يحدث لي ..

عشرات الضربات والكدمات انتهت على من كل صوب ..
كل ما اهتمت به هو أن أحصى عوينتي من أن تنهشم ..
ولكن في اللحظة التالية هوت عصا ثقيلة على مؤخرة
عنقي .. هذا كل ما أنكره عن الموضوع ...

(باقى رسالة علاء)

كنت الآلام تمرى عنى ..

عندما ألفت وجدت أننى راقد وسط الأوحال .. يبدو
 أنه لم يعد فى جسدى جزء لم يتلق للضربات .. فى كل
 مكان تنبض تلك للشموس وتختف بلا انقطاع .. لماذا
 ترتبط بدقات قلبى ؟

كان للظلام شبه تام ، وإن لمحت بقايا جنوة لهب
 هنا أو هناك ..

على بعد خطوات كان (فيليب) يرقد على الأرض
 يغط وهو بعد يده .. على بعد خطوتين كان إقاء من
 فخار نصف ملىء بسائل لا أعرف ما هو .. خمر طبعاً ..
 للمساحة شبه خالية ما عدا بعض للرجال راقدين على
 الأرض يغطون فى نوم عميق ..

الآن .. آى ! أفهم القصة .. لقد ألقوا فى الاحتفال
 وشرب للخمير ، ومن الواضح أن ما فى عروقهم لم يعد
 لما بل هو كحول تصبح فيه كريات بيض وحمراء ..

راسى يرق كأن بداخله يد هلون تحملها ربة بيت
 نشطة حقاً .. ربما لى بالذات ..

لكنى نظرت إلى المنصة أو الساحة التي كان العرض
يُمارس عليها .. وسط المشاعل المنطقنة كانت (مفلين)
متكورة على نفسها داخل الجوال .. لقد كفت عن البكاء
منذ دهور وصارت تهتز لا أكثر .. لقد دفعت غاليًا ثمن
ما فعله جدها ..

مشيت في حذر نحوها .. وهزرتها .. ففتحت عينيها
وصرخت في هستيريا :

« لا !! أنا لم أفعل لك شيئًا »

« اصمتي يا بلهاء ! »

وكممت فمها بيدي ..

إن الفرصة ستحة .. السائق نائم في السيارة خارج
القرية .. فقط لو حافظنا الحظ إلى أن نتصلل بهدوء ..
عندها سوف ..

ساعتها على النهوض ..

ومتوكة على بدلنا نشق طريقنا وسط الرجال المغمورين ..

فجأة شعرت بيد تطبق على كاحلي كما يفعل الزومبي في
الغلام الرعب .. نظرت في هلع لأسفل لأجد (فيليب)
أحمر العينين منكوش الشعر يمسك بكاحلي ويقول :

- « لن تهرب الفتاة .. سوف .. سوف تقبل هنا للأب .. للأب ! »

ركلة عنيفة جعلته يطلق سراح كلحلي ، لكن من أين جاءت الركلة إذا كنت أعرف يقينا أنها ليست سافلى ؟ سافلى سوداء نحيلة راجفة ...

نظرت لأعلى فوجدت ذلك العجوز رئيس القرية .. كان يضع عباءة ثقيلة على كتفيه وهو يرتجف .. وينظر لـ (هليلب) بحدة .. وقال شيئا بلغتهم ، ثم نظر لى وقال بإنجليزية متعثرة :

- « الرجل الأبيض قس وقتر .. الأبيض ننس .. نحن لا نتعم منه .. (الخوى خوى) لا يقتلون الرجل الأبيض .. رجال من رجال لا يحبون النساء .. الرجل الأبيض يفعل لأنه ننس .. »

يا سلام ! وأين كانت هذه الحكمة بينما الفتاة تهان منذ ساعات ؟

كأنما سمع كلامى قال :

- « لهن (ميبكى) قل هذا لأنه يعرف أننى مريض .. الزعيم لم يكن ليوافق .. هو فطها وأنا مريض .. »

ثم أشار إلى بعيد وقال :

« خذ المرأة وارحل .. »

هب (فيليب مبيكى) ليحتج .. التفت عيناه بعيني ثم بعيني (ملالين) .. وفجأة مرغ وجهه في الأرض وتفجر في البكاء ... بكاء المغمورين العميق الذي ينتهى بقتوم غلباً .

أمسكت بذراع (ملالين) وألصقتها خارج القرية وسط الدجاج والخنازير التي بدأت تفيق من سباتها.

★ ★ ★

وفي طريق العودة بعدما استرحت أنفاسها قليلاً سألتها بحذر :

« ماذا تتوين عمله ؟ »

قالت وهي ترمق معالم الطريق في ضوء الفجر من النافذة :

« لا شيء .. »

« لأن تقضى شكوى للشرطة ؟ »

قالت دون أن تنتظر لى :

« نعم لن ، لكن شكوى .. اعتقد أننا لن نرى (فليب مبيكو) ثقية وهذا يكفينى .. بشكل ما أعرف الآن مدى الإهانة والقسوة التى تعرضت لها تلك الفتاة البالغة .. لقد قتلوا روحها على أمل أن السود ليست لهم روح .. بشكل ما اعتبر أن جنسى الأبيض مدين باعتذار لهؤلاء القوم .. لقد قدمت لنا هذا الاعتذار .. صحيح أننى ما زلت حية ، لكنى اعتبر أننا متعلان الآن .. لقد سددت ديونى كاملة .. سددتها كاملة ! »

وهنا انفجرت فى البكاء ..

لقد علقت غندها اللعينة تعمل بعد فترة الجذب الطويلة هذه ..

اللازحام

سيارته معطلة ..

من جديد وبعد يومين من عودتها من ضد
الميكانيكي .. إن أشرف يوشك على الجنون غيظًا ..
هؤلاء الناس يحسبون أنه ينهمك في طبع النقود في
الأوقات التي لا يعمل فيها ..

من جديد يركب سيارة التاكسي ..

هذه المرة أيضًا ينطلق في شارع جامعة الدول
العربية ، لكن لغرض مختلف ..

سائق التاكسي لا يكف عن الثرثرة .. هناك دوماً
لجان مرور وأمناء شرطة سمجون وضابط بصر على
أن يرى مظافة الحريق ..

يرى أشرف ميدان مصطفى محمود .. هذه المرة لم يكن
تجمع السود هناك .. لقد حكوا له عن اشتباك قوات
الأمن مع هؤلاء قبل عودته إلى مصر بيومين ..

شاب أسود فارح الطول يشير لسائق التاكسي ..
ويقول شيئاً ما ..

سائق التاكسى يسب ويلعن :

- « مستحيل أن تفهم حرفاً مما يقوله هؤلاء البكم .. »

قال (أشرف) فى صبر :

- « هو أيضاً لا يفهم ما نقول .. لم يكن لبواه عرييين ..

لو أنك فى بلادهم لقالوا عن عربيتك ذات الكلام .. »

- « هراء .. لكل يفهم العربية .. »

هرع الفتى يلحق بالتاكسى المتوقف ، وركب فى المقعد الخلفى ..

ينظر له أشرف فى المرأة .. وللمرة الأولى يشعر بأنه يفهم هاتين العينين ..

استدار وسأل الفتى :

- « كامبيرون ؟ »

كأنه لو كان من هناك فلا بد أنه يعرف (علام) ..

قال الفتى :

- « بوركيينا فاسو . »

- « تحرير ؟ »

لمعت عينا الفتى فى حماسة وقال بالإنجليزية :

- « نعم .. نعم .. ميدان التحرير .. »

- « زحام ؟ »

- « نعم .. نعم .. زحام شديد .. »

وضحك الفتى وضحك أشرف .. كأنها أقوى دعاية
فى العالم ..

كانا بضحكان بينما السائق ينظر لهما فى ذهول ..
ولابد أنه كان يبرطم أشياء عن الناس التى جنت أخيراً ..
لابد أن الغلاء هو السبب ..

ماذا حدث بعد ذلك ؟ للأسف هذه أشياء تقع خارج
نطاق علمنا فى (سافارى) ...

★ ★ ★

د. علاء عبد العظيم

من قرب ديربان

تمت بحمد الله

سافاري

مغامرات طبيب شاب يجاهد

لكي يظل حيا ولكن يظل طبيبا

روايات مصرية الحبيب



د. محمد رضا الزوفي

رجال من رجال

(خوى خوى) .. أو (رجال من رجال) .. هكذا أطلقوا على أنفسهم ، لكن للعبارة معنى آخر هو أنهم هم الناس العقيقيون ولا أناس سواهم .. كبرياء منتهية واعتزاز بالذات قد يبدو مضحكا .. لهذا كانت الصدمة مريرة عندما رأوا تلك المعاملة القاسية ، وعندما تلقوا أظنع إهانة يمكن للعقل البشري أن يتصورها .. عندها قرر هؤلاء (الرجال من رجال) أن ينتقموا

العدد القادم

هواء فاسد

المؤسسة

العربية الحديثة

للطب والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

